



لعبة القدر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

لعبة القدر

رحماك يا بئر العذاب ومنتهاه

يا قدراً يلهو بالقلوب على هواه

يا ويل قلبى من رداء تنسجاه

أنت والأحزان من خفض الجباه

يا خوف عقلى أى عبث تهوياه

يا هول نفسى أى سر تطوياه

إن كان قدرى أن أعيش بلا حياه

ويشيب قلبى قبل أن أروى صباه

فإليك بؤسى لم أذق يوماً سواه

وإليك حزنى ولتكن روحى فداه

(نبيل)

١ - قصتى ..

« يقولون إنك كاتب قصصى.. هل هذا صحيح ؟ ».

تسللت تلك الكلمات إلى أذنى ، فى صوت هادئ تشوبه رنة تحدّ غامضة ، وبنعومة أنثوية دفعتنى إلى رفع عينى إلى محدثتى ، بمزيج من الدهشة والتساؤل ..

كنت أجلس لحظتها فى النادى الرياضى الصغير ببلدتى ، أنتظر قدوم زوجتى وطفلى الصغير ، بعد أن قرّرنا تناول طعام الغذاء هناك ، فى ذلك اليوم ..

تأملت محدثتى فى حيرة ، دون أن أنهض حتى لتحيتها ، كما تقتضى أصول اللياقة ..

ثوبها الضيق ، ومكياجها المبالغ فيه ، والسيجارة المشتعلة بين أصابعها أثارت قلقى ..

لم يكن من المألوف فى مجتمع بلدتى الصغير ، أن يرى المرء واحدة مثلها ..

كان مظهرها يمنعنى من محادثتها ، أو حتى إجابة سؤالها ، لولا عيناها ..

كانت عيناها هى أبرز ملامحها ، على الرغم من بشرتها الحمرية ، وشعرها الغجرى المصبوغ باللون الأشقر ، المائل إلى الحمرة ، وفمها الصغير الجميل ..

كانت عيناها واسعتين خضراوين ، تظللهما رموش سوداء طويلة ، كشفت زيف لون شعرها ..

وكانتا حزينتين ..

على الرغم من كل هذا المظهر العابث ، الذى أضفته على نفسها ، كانت عيناها ترويان حزناً لا حدود له ..

حزن عميق .. عميق .. لا قرار له ..

هـذا الحزن وحـده ، هو الذى دفعنى للإجابة عن سؤالها فى هدوء :

— أعتقد أننى كاتب قصصى حقًا ، ولكننى لم أبلغ من الشهرة بعد ، ما يكفى لمثل سؤالك هذا ؟

قبل أن أزيد حرفاً واحداً ، كانت قد جذبت مقعداً ، ودعت نفسها لمشاركتى المائدة ..

شعرت ببعض الحرج من مجلسنا معاً ، وأدرت رأسى

إلى باب النادى فى ارتباك ، خشية أن تصل زوجتى فى هذه اللحظة ، فتظن بى الظنون ..

لاحظت هى ارتباكى ، فسألتنى فى هدوء :

— هل تنتظر أحداً ؟

أجبتها فى ارتباك :

— زوجتى .

هزَّت كتفيها فى لا مبالاة ، وألقت سيجارتها التى شارفت على الانتهاء ، ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجائر أجنبية الصنع ، التقطت منها سيجارة جديدة بأصابع رشيقة ، ثم دستها بين شفتيها الجميلتين ، وأشعلتها بقداحة فضية صغيرة ، بدت لى ملائمة تماماً لطلاء أظفارها الفضىّ اللامع ..

وجدت نفسى ، دون وعى منى ، أرقب طريقتها فى إشعال سيجارتها باهتمام ، وكأننى أحاول تطبيق آخر النظريات النفسية ، التى قرأتها أخيراً ، عن ارتباط شخصية المدخن بأسلوبه فى إشعال سجائره ..

مراقبتها لم تزدنى إلا حيرة ..

كانت الطريقة التى تلتقط بها أنفاس سيجارتها ، تشف عن قصر عمر التدخين فى حياتها ، فى حين كانت جرأتها فى التدخين ، على هذا النحو العلنى ، وسط مجتمعنا الصغير ، توحى بعكس ذلك تماماً ..

ظللت صامتاً أتأملها فى اهتمام ، حتى بادرتنى هى قائلة :

– من أين تأتى بالأفكار ، التى تكتبها فى قصصك ؟

اعتدلت فى مجلسى ، وكأننى أهم بإلقاء محاضرة أدبية ، وقلت فى جدّية :

– للكاتب عالمه الخاص ، فهو يختار أبطال قصصه ، وينسج حولهم الأحداث و ....

قاطعتنى فى هدوء لا يخلو من السخرية :

– هذا هو خطؤكم أيها المؤلفون .

نظرت إليها فى دهشة ، فأردفت وهى تنفث دخان سيجارتها فى تحدٍّ :

– لم لا تنظرون حولكم ؟.. الحياة مليئة بآلاف القصص ، التى تستحق التسجيل ، والتى تبدو أكثر إثارة من الخيال نفسه .

خيل إلىّ أننى فهمت ما تعنيه ، فابتسمت وأنا أقول :

– هل لديك قصة تصلح لمؤلِّف جيد ؟

ابتسمت ابتسامة بدت لى أكثر حزناً من البكاء نفسه ، وهى تقول :

– أراهن أن القصة التى أحملها ، ستفوق مؤلفاتك نفسها .

بدأ الاهتمام يتملـَّكنى ، حتى أننى نسيت قدوم زوجتى ، وسألتها فى اهتمام :

– أهى قصتك ؟

ازدادت ابتسامتها حزناً ، وقالت :

– استمع إليها أولاً ، ثم ضعها فى التصنيف الذى يحلو لك .

استرخيت فى مقعدى ، محاولاً القضاء على حالة التوتر ، التى ملكتنى مع لهفتى وانفعالى ، وأشعلت إحدى سجائرى بدورى ، وقلت فى اهتمام :

– حسناً .. كلى آذان صاغية .

وبدأت تقص القصة ...

* * *



٢ – قصتها ..

بدأت أحداث هذه القصة منذ سبع سنوات ، بين فتاة خمرية اللون ، سوداء الشعر ، تعقصه خلفها على نحو طفولى طريف ، يؤكد ذلك الحياء المطل من عينيها الخضراوين الواسعتين ، وشاب أسمر وسيم ، له ملامح رجولية ، مغرقة فى الطيبة والحنان ، وشعر مجعد قصير ، وعينان سوداوان بلون الليل ، يطل منهما حبٌّ عميق ، حبٌّ يفيض على العالم أجمع ..

دعنا نطلق على الفتاة اسم (هدى) ، وعلى الشاب اسم (سمير) ..

كان (سمير) و (هدى) زميلين فى كلية التجارة .. واحدة من كليات التجارة ، فى إحدى المدن الصغيرة ، التى تحتل مركزاً متوسطاً فى دلتا مصر ..

وكانا متحابين ..

لا أحد يدرى متى بدأت تلك العاطفة السامية ، تغزل خيوطها الحريرية حول قلبيهما ..

حتى هما لا يدريان ..

لقد اعتاد كل منهما رؤية الآخر فى الكلية ..

اعتادا اللقاء ، حتى أتى يوم كشف فيه كل منهما تلك اللهفة فى اللقاء ، وذلك الشعور الجارف ، الذى يملأ قلبيهما ، لحظة تقع عينا أحدهما على وجه الآخر ..

لم يقاوما هذا الشعور ..

لم يحاولا ذلك ..

تركا مشاعرهما تشق طريقها فى قلبيهما فى هدوء ، واستسلام ..

مجتمع الكلية كله استسلم لهذا الحبّ ..

كانا يلتقيان فى لهفة ، ويفترقان على وعد جديد باللقاء ..

حتى انتهت دراستهما الجامعية ..

نجح كلاهما بتقدير متوسط ، ولكن هذا لم يقلقهما ، فقد كان نجاحهما وحده يكفى ..

يكفى لبدء حياتهما ، وتحقيق أملهما المشترك ..

الزواج ..

كان قد مضى أسبوع واحد على تخرجهما ، حينما التقيا بلهفة فى نادى المدينة الصغير ..

جلسا إلى مائدة تتوسط حديقة النادى ، وتشابكت أصابعهما فى حب ، وقال (سمير) ، وهو يحتوى (هدى) بحنان عينيه الدافق :

ـ ألمْ يحن الوقت بعد يا (هدى) ؟

سألته فى خفر ، وهى تخفى عنه سعادتها :

ـ لم يحن لماذا ؟

ابتسم ابتسامة واسعة حنون ، وقال فى حبٍّ :

ـ لزواجنا .

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتمتم :

ـ هذا قرارك وحدك .

أمسك كفيها فى حنان ، وقال :

ـ كلاّ يا (هدى) .. إنه قرارنا معاً ، ولابد لى أن أحصل على موافقتك أولاً .

سألته فى دهشة :

ـ موافقتى ؟! .. هل تسألنى عنها حقًّا ؟

ابتسم وابتسمت ..

حملت ابتسامتها موافقة قديمة ، ولهفة عميقة ، وحملت ابتسامة حبّ الدنيا كلها ..

غمغم (سمير) :

— متى يمكننى مقابلة والدك ؟

أجابته فى سعادة تمتزج بالخجل :

— غداً لو أردت ، سأطلب منه أن ينتظرك .

عاد (سمير) إلى منزله وهو يكاد يرقص طرباً .. ولم يكد يرى والده حتى هتف فى سعادة :

— سأقابل والدها لطلب يدها فى الغد يا والدى ... ستذهب معى .. أليس كذلك ؟

ابتسم الوالد فى سعادة ، وطيبة كبيرة ، وقال وهو يربِّت على كتف ابنه فى حنان :

— بالطبع يا ولدى ، إنك ابنى الوحيد ، وأنا أنتظر هذا اليوم منذ سنوات .

أما أمه ، فقد أسرعت إليه فى سعادة ، وضمته إلى صدرها ، وهى تقول فى فرح :

— كم دعوت الله (سبحانه وتعالى) ، أن يهبنى طول العمر ، حتى أشهد هذا اليوم يا ولدى .

عاد الوالد يسأل ابنه فى حبٍّ :

— هل وافق والداها يا بنىّ ؟

هتف (سمير) فى سعادة :

— المهم موافقتها هى يا والدى ، هذه سمة عصرنا .

ابتسم الوالد فى حنان ، وقال :

— ربما كان حماسك يصوِّر لك هذا يا ولدى ، ولكن الشيوخ أمثالنا يفكرون دائماً على نحو أكثر واقعية .

تلاشت سعادة (سمير) بغتة ، وسأل والده فى قلق :

— ماذا تعنى يا والدى ؟

ازدادت ابتسامة الوالد طيبة ، وقال وهو يضم ابنه فى حنان :

— لا تقلق يا ولدى ، هذا شأن الكبار .

لم تمح هذه العبارة ذلك القلق ، الذى تولد فى نفس (سمير) ، ولأول مرّة منذ بدأت علاقته بـ (هدى) ، دار فى رأسه سؤال حائر ..

ترى.. هل يوافق والد (هدى)، على زواجه منها ؟..

السؤال نفسه دار فى رأس (هدى) ، وهى تخبر والدها بأمر (سمير) ، ورغبته فى الزواج منها ..

كانت هذه هى المرّة الأولى ، التى يعرف فيها الوالد أن ابنته الوحيدة غارقة فى الحبّ ، ولقد أحنقه هذا بعض الشىء فى البداية ، ولكنه لم يلبث أن أقنع نفسه بأن هذه هى طبيعة شباب العصر ، وأنه لا عيب فى الحبّ ، ما دام الزواج هو هدفه الرئيسى ، ولكن ملامحه ظلت هادئة وهو يسألها :

— هل اسمه (سمير) ؟

أجابته (هدى) فى اهتمام :

— نعم يا والدى .. (سمير عبد الشافى) ، والده هو..

قاطعها والدها فى هدوء :

— وما وظيفة (سمير) هذا ؟

ارتبكت (هدى) ، وهى تقول :

— قلت لك إنه زميل لى يا والدى ، ولقد تخرجنا منذ أسبوع واحد ، ولم يلتحق بأية وظيفة بعد .

مطّ الوالد شفتيه فى امتعاض ، وقال :

— إذن فهو سيخطبك أولاً ، ثم ينتظر حتى تنتهى فترة تجنيده الإجبارية ، ويأتيه خطاب القوى العاملة و....

قاطعته (هدى) فى ضيق :

— لن يجنّد (سمير) يا أبى ، فهو مثلى وحيد والديه .

أومأ الوالد برأسه، وكأنه يؤكد فهمه للأمر ، ثم قال :

— حسناً .. هذا سيختصر عاماً كاملاً فى السنوات الخمس ، التى يحتاجها قبل أن يصبح قادراً على الزواج .

شعرت (هدى) بقلبها يهوى بين قدميها ، مع رنة السخرية التى خالطت صوت والدها ، فسألته فى خوف :

— ماذا تعنى يا والدى ؟

أجابها فى هدوء لا يخلو من الصرامة :

ـ أعنى أنكما تعبثان ، أنت و (سمير) هذا ، وأنكما لا تقدّران المسئوليات التى يفرضها الزواج .

شعرت (هـدى) بطعنة موجَّهة إلى كرامتها ، مع قول والدها ، فهتفت فى غضب :

ـ أنت لا تعرف (سمير) يا والدى .. إنه رجـل يقدّر المسئولية .

ظهر الغضب على وجه والدها ، وصاح :

ـ هل تجرئين على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟

صاحت (هدى) فى غضب مماثل :

ـ إننى أقول رأيى فحسب .

كانت والدة (هـدى) قد لزمت الصمت طـوال الوقت ، ولكنها لم تكد تلمح ذلك الغضب الهائل فى ملامح زوجها ، حتى هبَّت لتهدئة الموقف ، وصاحت فى ابنتها :

ـ اذهبى إلى حجرتك يا (هـدى) ، واتركينى أنا أتحدث مع والدك فى الأمر .

تردَّدت (هدى) لحظة ، ثم أسرعت إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى قوة ، فقال الوالد فى حنق :

ـ هل رأيت كيف تخاطبنى ابنتك ؟

ربَّتت الأم على كتفه ، وقالت فى حنان :

ـ إنها ابنتنا معاً يا زوجى العزيز ، ولقـد حاولنا طيلة عمرنا أن نجعـل منها شخصية مستقلة ، فلا ينبغى أن نعاقبها اليوم ، على نجاحها فى ذلك .

صمت الوالد ، وهدأت أساريره ، وكأن قول زوجته قد أعاد إليه صوابه ، وغمغم فى ضيق :

ـ لست أمانـع فى اسـتقلالها بشخصيتهـا ، ولكن طبيعتهـا الرومانسية تجعلهـا ترى الأمور بشكل وردى ، لا يتفق مع طبيعة الزمن الذى نعيشه .

ـ إنها تحبه .

ـ الحبُّ وحده لا يكفى لزواج ناجح .

ـ ولكنه يضمن التوافق بين طرفى الزواج .

ـ هناك التكافؤ أيضاً ، وهذا الشاب الذى تريده ابنتنا زوجاً ، لن يمكنه أن يوفر لها الحياة التى تحتاجهـا .

— الحبُّ سيجعلهما يحتملان الصعاب .

— هراء .. إذا دخل الفقر من الباب فرَّ الحبّ من النافذة .

صمتت الأم لحظة عند هذه النقطة ..

كانت تتنازعها عاطفتان قويتان ..

رغبتها فى توفير السعادة لابنتها ، عن طريق زواجها بالشاب الذى تحبه ، وخوفها من أن يتحوَّل هذا الزواج إلى مقبرة للحبّ والهناءة ..

غمغمت الأم فى قلق :

— هل تعنى أنك ترفض مقابلة (سمير) ، ووالده ؟

مطَّ الوالد شفتيه فى حنق ، وقال :

— لا أستطيع أن أمنع إنساناً من زيارتى ، هذا يخالف الذوق السليم .

سألته الأم :

— وماذا عن زواجه بـ (هدى) ؟

أجابها فى صرامة :

— ستنساه (هدى) سريعاً .

سألته الوالدة ، وكأنها ترفض تصديق ما تعنيه كلماته :

— ماذا تعنى ؟

أجابها فى صرامة :

— أعنى أننى أرفض هذا الزواج .. أرفضه تماماً ، ودون مناقشة .

* * *



٣ ـ اللقــاء ..

تململت فى مقعدى ، عندما وصلت محدّثتى إلى هذا الجزء من القصة ، ولاحظت هى تململى ، فسألتنى فى هدوء :

ـ ألا تصدّق ما أقول ؟

أجبتها فى لهجة مجاملة :

ـ إننى أصدّقك بالطبع .

أشـعلت سيجارتهـا العـاشرة ، وقالت وهى تبتسم ابتسامة حزينة :

ـ هل أصابك الملل إذن ؟

تردّدت لحظة ، ثم اعتدلت فى مقعـدى ، وقلت فى جـدّية :

ـ هل يضايقك أن نتحدث فى صراحة ؟

أجابتنى فى اهتمام ممـاثل :

ـ بالعكس .. إننى أقص عليك كل شىء ؛ لأعرف رأيك فى صراحة .

زال تردُّدى وأنا أقول :

ـ على الرغم مما تظنينه من الحزن فى قصتك ، فأنا أراها قصة تقليدية و ....

قاطعتنى فى صرامة :

ـ إنها ليست قصتى .

ابتسمت وأنا أقول :

ـ حسناً .. إن قصة (هدى) تقليدية جدًّا .

غمغمت فى تساؤل :

ـ تقليدية ؟!

أجبتها فى هدوء :

ـ بالطبع .. إنها قصـة كل شاب وفتاة ، ربطتهما عاطفة الحبّ ، وفرّقتهما واقعية الحياة المـادية فى عصرنا هـذا .

خيّـل إلىّ أن ابتسامتهـا تحمل بعض السخرية ، وهى تقول :

ـ هكذا ؟!

قلت فى صرامة :

– أنا أراها كذلك .

أجابت فى برود :

– هذا لأنك لم تسمع القصة حتى آخرها .

سألتها فى هدوء :

– وهل سيختلف باقى القصة ، عما يمكن استنباطه من أحداثها الماضية ؟

أجابت فى تحدٍّ :

– أراهنك .

ابتسمت وأنا أقول :

– حسناً .. سأستمع إلى بقية القصة .

وعادت تروى ..

* * *

اختلج قلب (هدى) بين ضلوعها ، وهى تنظر إلى ساعتها فى اليوم التالى ..

سيحضر (سمير) ووالده بعد ساعة واحدة ، وهى لم تنته من زينتها بعد .

ولكن هذا لم يكن الشىء الوحيد ، الذى يقلقها ..

كان أكثر ما يقلقها ، هو موقف والدها الغامض من هذا اللقاء ..

إنه لم يتحدث عنه مرَّة ثانية بعد شجاره معها ، أمها هى التى أخبرتها أنه سينتظر قدوم (سمير) ووالده ، ولكن لهجتها لم تكن توحى بقبول والدها ، ولم تفهم (هدى) سرّ موافقته على الزيارة ، ما دام لم يقبل فكرة الزواج ..

لم يخفت قلقها إلا حينما بدأ قلبها ينبض فى عنف ، مع قدوم (سمير) ووالده ..

لم تجرؤ هى على مقابلتهما ، على الرغم من الجهد الذى بذلته فى تجميل نفسها ، وإعدادها لهذه المقابلة ، فاكتفت بالاختفاء خلف باب حجرتها ، والإنصات فى لهفة إلى حديث والدها ، مع (سمير) ووالده ..

لقد شعرت بالحنق فى البداية ، مع ذلك الاستقبال البارد ، من والدها لهما ، ثم لم يلبث حنقها أن توارى خلف قلقها ، ولهفتها لمعرفة نتائج اللقاء ..

ظل الثلاثة يتحدثون فترة طويلة ، دون أن يذكر أحدهم كلمة واحدة عن أمر الزواج والخطبة ، ولكن والد (سمير) نجح بلباقته ، وحسن حديثه ، فى انتزاع الاحترام والإعجاب من والد (هدى) ، الذى لم تلبث لهجته أن تحوّلت من البرود إلى الاحترام والاهتمام ، ولم يكد والد (سمير) يشعر بذلك ، حتى بادر والد (هدى) قائلاً :

– لقد أسعدنا كثيراً أن نتعرّفك يا سيدى ، وسيشرّفنى جدًّا لو قبلت زواج ابنى (سمير) ، بابنتك (هدى) .

ساد الصمت تماماً بعد عبارة والد (سمير)، وشعرت (هدى) بانفعالها يصل إلى ذروته ، فى تلك الدقائق القليلة ، التى مضت منذ نطق والد (سمير) بعبارته، وحتى أجاب والدها فى هدوء :

– يهمنى أولاً أن أعلم كيف سيعول (سمير) ابنتى .. كيف سينفق عليها ؟ وأين سيقيمان ؟

ثم أردف ، وقد استعادت لهجته صرامتها :

– (هدى) هى ابنتى الوحيدة ، ولابد أن أطمئن على مستقبلها قبل كل شىء .

ترقرقت دمعة فى عينى (هدى) ..

كانت تعلم أن ما يقوله والدها مجرّد مقدمة ، حتى يبرّر أسباب رفضه لـ (سمير) ..

إنها أول من يعلم أن (سمير) لم يعمل بعد ، وأن أزمة الإسكان الطاحنة ستقف حائلاً بينها وبينه ، ولكنها فوجئت بوالد (سمير) يقول فى هدوء :

– لقد حصل (سمير) بعد ظهر اليوم على عمل ، فى مكتب محاسب كبير هنا ، مقابل مائة جنيه شهريًّا ، وسيحصل بعد عامين على شهادة تدريب ، تسمح له بفتح مكتب محاسبة خاص .. أما بالنسبة للمسكن ، فنحن نملك منزلاً صغيراً من طابق واحد ، ولكنه فى أحد الأحياء الكبيرة فى المدينة ، ولقد كنت أعدّ نفسى منذ زمن طويل لهذه المناسبة ، فادخرت بعض المال ، الذى يكفى لبناء

طابق ثان فى المنزل ، يقيم فيه (سمير) وعروسه (بإذن الله) ، ولدىَّ قطعة أرض زراعية فى قريتى ، سيكفى ثمنها لتأثيث منزلها (بإذن الله) .

رقص قلب (هدى) طرباً لهذه المفاجأة السارَّة ، وكادت تصرخ فرحاً، عندما أردف والد (سمير) فى حنان وطيبة :

– (سمير) نفسه لم يكن يعلم بكل هذا حتى ظهر اليوم ، وأعتقد أن (هدى) أيضاً لا تعلمه ، ولكننى أحبُّ أن أؤكد لك أن مستقبل (هدى) سيكون آمناً معنا (بإذن الله) لقد تمنينا طويلاً – أنا وزوجتى – أن ننجب ابنة ، ولكن الله (سبحانه وتعالى) لم يشأ ، ولكننا سنعد (هدى) ابنتنا ، التى عوَّضنا الخالق بها عن ابنة الرَّحم .

ساد الصمت مرَّة أخرى ، ولكنه كان صمتاً مشوباً بالفرحة فى قلب (هدى) ، وزغرد قلبها فى سعادة ، حينما قال والدها فى صوت ينم عن الارتياح :

– إنك لم تترك لى مجالاً للاعتراض ياسيد(عبد الشافى) ، ويكفى أن أعدك بأن (سمير) أيضاً سيكون ابناً لنا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى انطلقت زغرودة حقيقية من بين شفتى أم (هدى) ، التى كانت تنصت بدورها للحديث ، والتى اندفعت فجأة ، وبلا مقدمات ، إلى حجرة الصالون ، واحتضنت (سمير) فى فرح وحنان ، وقبَّلت وجنته ، وهى تقول فى حرارة :

– ألف مبروك يا بنى .

وجدت (هدى) الدموع تنهمر فجأة من عينيها ، وتغرق وجنتيها ..

كانت دموع السعادة ، التى ازداد انهمارها ، حينما قال والدها فى سعادة :

– أين الشربات يا أم العروس ؟.. اطلبى منها أن تحضره بنفسها ..

يا للقدر.. حينما يهب السعادة فى سخاء ، وبلاحدود!!

لقد عاش (سمير) و (هدى) أجمل أيامهما وأسعدها، بعد موافقة والدها ..

لقد كان حفل خطبتهما عرضاً لأجمل ألوان الحبّ ..

كل أصدقاء الكلية القدامى حضروا حفل الخطـوبة ، وخفقت قلوبهم فى سعادة ، وهم يشاهدون (سمير) ، وهو يضع (دبلته) فى إصبع (هـدى) ، ورأوها تفعل المثل معه ..

لقد أجمعوا كلهم على أن الحبّ كان يطل من عينيهما قويًّا ، عميقاً فى هذه اللحظة ، وكأن كلاً منهما قد أصبح الحياة كلها بالنسبة للآخر ..

لم يهتما كثيراً بتفاصيل الحفل ، فقد شغل كل منهما بالآخر ، وغرق فى عينيه وحنانه ..

لم يترك (سمير) كف (هدى) لحظة واحـدة طوال الحفل ، ولم تترك هى كفه ..

وكأن هذا الحفل هو لقاء حبهما الأول ..

ولقد فجر هذا الحبّ كل ينابيع الحنان فى قلوب أسرتيهما ، ودفعهما إلى الإسراع فى الإعداد للزواج ..

تم بناء الطابق الثانى فى منزل والدى (سمير) فى سرعة، وانتهى صنع أثاث منزل العروسين فى فترة قياسية ..

وفى ليـلة من ليـالى أغسطس الدافئة ، انتهت فترة خطوبة (سمير) و (هدى) ..

لقد أصبحا زوجين ..

* * *



٤ ـ الحب ..

مع زواج (سمير) و (هدى) ، وحياتهما تحت سقف واحد ، بدأ فصل جديد من قصة حبهما ..

لقد تحديا القاعدة التى تقول إن الزواج مقبرة الحبّ..

كان الزواج لحبهما ، كالماء الذى ترتوى به الزهور ، فتزداد تفتُّحاً وازدهاراً ..

ومنحهما القدر السعادة بلا حساب ..

لقد تفوّق (سمير) فى عمله ، فى مكتب المحاسبة ، حتى نال ثقة صاحب المكتب ، فأجزل له العطاء ، وزاد من اهتمامه به ، وظلت (هدى) فى المنزل بلا وظيفة ، أو أنها حصلت على أعظم وظيفة فى الكون ..

كان (سمير) يعود من عمله مكدوداً ، متعباً ، فيجدها فى استقباله باسمة حنوناً ، تغدق عليه حبها وعطفها فى سخاء ، فتمحو ببسمتها متاعبه ، وبحنانها آلامه ..

وهو أيضاً كان يمنحها عواطفه وحنانه فى كرم

حاتمى ، حتى باتا بعد عام من الزواج ، وكأنهما ما زالا عروسين فى أول أيام زواجهما ..

وتكللت حياتهما الزوجية بأعظم ما فيها ..

استدارت بطن (هدى) وتكوّرت ، وأصبح واضحاً للجميع أنها تنتظر مولودها الأول ..

لا أحد يمكنه أن يصف الفرحة الغامرة التى ، ملأت العائلة ، لقرب قدوم هذا الضيف الجديد ..

(سمير) بدا وكأنه أسعد مخلوق فى العالم ، و (هدى) ازدادت تعلُّقاً به ، وكأنها تعلن له مزيداً من حبها ، بعد أن أصبح والد ابنها ، أو ابنتها ..

والدة (سمير) ووالده أغدقا مزيداً من حبهما ، وعطفهما على زوجة ابنهما الوحيد ، التى لم تشعر لحظة واحدة ـ منذ زواجها ـ أنها فارقت والديها ..

كان والدا (سمير) يعاملانها بأبوّة وأمومة صادقة ، مخلصة ، وكأنهما يعوّضان بها تلك الابنة ، التى طالما تمنيا إنجابها ..

والدا (هدى) بلغت سعادتهما ذروتها ، فها هو ذا حفيدهما الأول فى الطريق ..

وامتلأ منزل (سمير) و (هدى) بلعب الأطفال ، وملابس المواليد ، التى غمرهما بها أفراد أسرتيهما ، وأخذ الجميع ينتظرون فى لهفة قدوم المولود الأول ..

وجاء الضيف ..

أتى طفلاً جميلاً ، يحمل عينى أمه ، وخمرية بشرتها ، وملامح والده ، وشعره المجعد ..

كان طفلاً جميلاً ، أطلقا عليه اسم (أحمد) ..

ولم يلبث (أحمد) أن أصبح محور حياة العائلتين ، ومصدر سعادتهما ، وفرحتهما ..

كانت كل من الوالدتين تتخاطفانه ، وتتنافسان فى منحه مزيداً من التدليل ، والحبّ ، والحنان ..

أصبح هو أهم شىء فى الحياة ، بالنسبة للجميع ..

الجميع يرقبون تطوّره فى اهتمام ولهفة ..

لقد ابتسم (أحمد) ..

لقد أدار عينيه إلى جده ، حينما ناداه باسمه ..

لقد بدأ يلتقط لعبه بيديه الصغيرتين ، ويوليها اهتمامه .

لقد ضحك اليوم بصوت مسموع ..

وعلى الرغم من اهتمام (هدى) البالغ بمولودها ، لم تهمل (سمير) يوماً ..

كانت تستقبله دوماً بابتسامة حنون ، وهو يستقبلها دوماً بابتسامة حبّ ..

ولكن (هدى) لم تلمح يوماً كل ذلك الحنان ، وكل تلك السعادة فى عينيه ، إلا حينما نطق (أحمد) بكلمة (بابا) للمرّة الأولى ..

لقد شعرت يومها وكأن (سمير) سيجن فرحاً ، وهو يحتضن ابنه ، ويداعبه فى سعادة ، حتى استغرق الصغير فى النوم ، وعلى ثغره المنمنم ابتسامة تحمل السعادة..
كل السعادة ..

وفى تلك الليلة ، بعد أن أوى الصغير إلى فراشه ، قال (سمير) فى اهتمام :

– لقد انتهت فترة تدريبى تقريباً يا (هـدى) ، وأصبح من حق الآن فتح مكتب محاسبة يحمل اسمى .

شاركته (هدى) اهتمامه ، وهى تقول فى حنان :

– وهل ستفعل ؟

صمت لحظة ، ثم أجابها :

– إننى آمل ذلك بالطبع ، ولكن هـذا يحتاج إلى مبلغ كبير من المال ، لاستئجار مكتب فى مكان معروف، وتأثيثه و ....

قاطعته فى حماس :

– إننى أدَّخر مبلغاً لا بأس به، انتظاراً لذلك اليوم ..

ابتسم فى عطف وهو يسألها :

– ومن أين لك هذا ؟

أجابته وهى تربِّت على شعره فى حنان :

– لقد كنت تمنحنى الجزء الأكبر من دخلك طوال العامين الماضيين فى سخاء ، ولكننى كنت أدخر منه جزءاً كبيراً ، وعندنا الآن ما يزيد على الألفين من الجنيهات .

ابتسم ابتسامة واسعة ، وقال :

– إننا نحتاج إلى عشرة آلاف على الأقل .

صمتت (هدى) بغتة ، وكأنما صدمتها ضخامة الرقم، ثم قالت فى حماس :

– يمكنك أن تبدأ هنا على الأقل ، فلدينا حجرة صالون ، لها مدخل منفصل ، ويمكنك استخدامها مكتباً ، حتى يمكنك تثبيت أقدامك على الأقل ..

ظهر التردُّد فى ملامحه لحظة ، ثم غمغم :

– ولكن ....

قاطعته فى حماس :

– ولكن ماذا ؟.. لابد أن نبذل جهدنا كله لتحقيق هذا الحلم .

ساد بينهما صمت طويل ، أظله الحبّ بمظلة من الحنان الدافق ، ثم ابتسم (سمير) ابتسامة واسعة ، وقال فى حنان :

– أحبك ..

تورّدت وجنتاها بحمرة الخجل ، كعادتها كلما سمعت هذه الكلمة الجميلة ، من بين شفتيه ، وغمغمت وهى تحتضن أصابعه بكفها الرقيقة :

– وأنا أيضاً أحبك يا (سمير) ..

منحهما حبهما القدرة على اجتياز كل العقبات ، وسرعان ما أصبحت هناك لافتة أنيقة ، تتدلى من شرفة منزلهما ، معلنة افتتاح مكتب (سمير) للمحاسبة ، فى نفس اليوم الذى احتفلا فيه بعيد ميلاد طفلهما (أحمد) ..

كان (سمير) مخلصاً فى عمله .. متفانياً فيه ، مما أثبت تفوُّقه وبراعته ..

ونما الصغير حتى بلغ عامه الثانى ..

ونما معه عمل (سمير) ، حتى لقد أصبح – على الرغم من صغر عمره – أشهر المحاسبين فى مدينته الصغيرة .

أصبحت هناك سيارة أنيقة صغيرة ، تقف أمام المنزل ، ومفاتيحها فى جيب (سمير) ..

وكانت (هدى) أشد فخراً بالسيارة ..

لم يكن وجود السيارة هو الذى يبعث فى نفسها الفخر ، وإنما نجاح زوجها فى تحقيق أحلامهما معاً ..

كان (سمير) يُولى عمله الجزء الأكبر من وقته ، ولكن (هدى) لم تعترض على ذلك يوماً ..

كانت تحتمل فى حبٍّ وحنان ، وهى تعلم أن زوجها ينتقل بحنانها وحبها ، من نجاح إلى آخر ..

ولم يبخل عليها (سمير) بحنانه وعطفه ، واعترافه بالجميل ..

ومع العيد الثانى فى حياة المولود ، افتتح (سمير) مكتبه الجديد الأنيق ، فى أكبر أحياء المدينة ، وأشهرها ..

مع ابتعاد (سمير) بمكتبه وعمله عن المنزل ، بدأت (هدى) تشعر بالفراغ ، على الرغم من أن (سمير) كان يحرص تماماً على عودته إلى المنزل ، فور انتهائه من عمله فى المكتب تماماً ..

كان يعود فى كل مرة ، وعلى شفتيه ابتسامة محبة حنون ، تمحو من قلب (هدى) كل شعور بالفراغ أو الملل ..

حتى كان يوم من أيام أغسطس الدافئة ..

يوم ذكرى زواجهما ..

أعدّت (هدى) كعكة كبيرة ، وزينتها بثلاث شموع ملوّنة ، وارتدت أفضل أثوابها ، وصفّفت شعرها فى عناية ، وأخذت تداعب طفلها ، وهى تنتظر عودة (سمير) ليحتفلا معاً بعيد زواجهما الثالث ..

ولكن (سمير) لم يعد فى موعده ..

تأخر حتى العاشرة مساءً ، حتى نهشها القلق ، وسيطر عليها الخوف ، فأسرعت تتصل بمكتبه ، ولكنها ظلت تستمع إلى رنين الهاتف فى الجانب الآخر طويلا ، دون أن يجيبها أحد ، فاشتعل قلقها ، ووصل إلى ذروته ، وظلت عيناها معلقتين بعقارب الساعة ، حتى وصل (سمير) مع دقات الحادية عشرة تماماً ..

لم يكن وجهه يحمل فى تلك الليلة الابتسامة ، التى حملها طيلة أعوام ثلاثة ..

كان متجهّماً ، يطل من عينيه حزن عميق ..

أسرعت (هدى) إليه فى لهفة ، وسألته فى قلق :

– ماذا بك يا (سمير) ؟.. لماذا تأخرت حتى الآن ؟..

نظر إليها بعينيه العميقتين فى صمت ..

لم تعد لديها ذرة من الشك ، فى ذلك الحزن المطل من عينيه ، فعادت تهتف بمزيد من القلق :

– ماذا بك ؟

أجابها وهو يضمها إلى صدره فى هدوء وحنان :

– لاشىء يا حبيبتى ، لقد تأخرت قليلاً بسبب بعض الأعمال فى المكتب .

ارتجفت بين ذراعيه ..

كانت تعلم أنه لم يكن فى مكتبه ، ولكنها لم تعترض على قوله ..

كانت تعلم أنه يخفى عنها أمراً ما ، ولكنها لم تحاول سؤاله عنه ..

أجبرت نفسها على التظاهر بالمرح ، وهى تقول :

– هل يذكّرك تاريخ اليوم بشىء ؟

عقد حاجبيه وكأنه يحاول أن يتذكَّر ، ثم غمغم فى تساؤل وشرود :

ـ أى شىء ؟!

ضايقها أنه لم يتذكَّر عيد زواجهما ، فتمتمت فى حزن :

ـ هل تذكر متى تزوَّجنا ؟

أشرق وجهه فجأة ، وهتف وكأنه يعاتب نفسه :

ـ يا إلهى !!.. إننى أستحق العقاب .

ثم عاد يضمها إلى صدره فى حنان ، ويقول :

ـ كل عام وأنت بخير يا حبيبتى.

هتفت وهى تلتصق به فى حبٍّ :

ـ وأنت بخير يا حبيبى .

شاركها (سمير) احتفالها بعيد زواجهما فى مرح ، ولكن مرحه الزائف لم يخدعها ..

كانت واثقة من أن شيئاً ما يقلقه ، ويحزنه إلى درجة كبيرة ..

لاحظت أنه كان يسرف كثيراً فى ضم ابنه إلى صدره ، وتقبيله فى حنان دافق ..

انتظرت حتى نام الصغير ، وأويا إلى فراشهما ، ثم سألته فى هدوء ، لم ينجح إخفاء قلقها البالغ :

ـ ماذا بك يا (سمير) ؟

حاول أن يبتسم ، ولكن ابتسامته جاءت تحمل كل حزنه الغامض ، وهو يقول :

ـ مجرَّد متاعب فى العمل يا حبيبتى .

ظلت صامتة لحظة ، ثم قالت :

ـ ما رأيك أن نحصل على إجازة من العمل ، ونذهب بعض الوقت إلى الإسكندرية .

حدَّق فى وجهها بدهشة ، ثم غمغم فى شرود :

ـ إجازة ؟!

أجابته فى انفعال :

ـ نعم يا (سمير) .. إجازة ، إنك ترهق نفسك كثيراً فى العمل ، فى الآونة الأخيرة ، وتحتاج ولا شك إلى إجازة ، يصفو فيها ذهنك من متاعب العمل .

ابتسم فى حنان وحزن ، وقال فى هدوء :

– ليس بعد يا حبيبتى .. سأنهى بعض أعمال المكتب أولاً ، ثم نحصل على الإجازة .

نامت (هدى) ملء جفنيها ، بعد أن حصلت منه على وعد بالإجازة ، ولكن شيئاً ما أقلقها فى النصف الأخير من الليل ، حيث فوجئت بأن (سمير) لا يرقد إلى جوارها ..

أصابها الفزع فى البداية ، فقفزت من الفراش ، وهمست باسمه فى قلق ، ولكنها لم تتلقَّ جواباً ، فأسرعت حافية إلى حجرة ابنها ، وهناك تسمَّرت فى دهشة ..

كان (سمير) يجلس إلى جوار فراش ابنه ، صامتاً ، شارداً ، حتى أنه لم ينتبه إلى قدومها ..

كان ينظر إلى ابنه النائم فى حنان ، وحزن ..

وكان يبكى ..

كان هناك خيطان من الدموع ، يلمعان على وجنتيه..

إنها المرَّة الأولى التى ترى فيها (هدى) دموع (سمير) ...

وقفت ذاهلة لحظة ، ثم أسرعت عائدة إلى فراشها ، على أطراف أصابعها ..

لم يعد لديها شك فى أن (سمير) يعانى حزناً هائلا ..

حزن امتلك جوارحه كلها ..

ولا بد لها من أن تعرف سبب هذا الحزن ..

لا بد ..

* * *



٥ - الصدمة ..

فشلت كل محاولات (هدى) ، فى معرفه سرّ حزن (سمير) ..

حاولت أكثر من مرّة أن تستدرجه ، إلى الإفصاح لها عن السرّ ، ولكنه كان يكتفى بابتسامة حزينة ، دون أن يخبرها بشىء ..

أصبح يغيب كثيراً عن المنزل ، ويقضى معظم وقته داخله فى مداعبة ابنه ، فى لهفة وحنان ..

لم يعد يبتسم كثيراً ، وحتى إذا فعل ، جاءت ابتسامته مليئة بالحزن ..

فى البداية تصوّرت (هدى) ، بدافع من مشاعرها الأنثوية ، أنه يميل إلى امرأة أخرى ، ولكن إغداقه الحبّ والحنان عليها بسخاء ، ومعرفتها بطبيعة شخصيته، جعلاها تستبعد هذا الافتراض ، وتحاول البحث عن مبرر آخر ..

إلى أن ساقت الأقدار إليها مفاجأة أخرى ..

كان أحد أقاربها قد قرّر أن يسند إلى مكتب (سمير)، مهمة مراجعة حسابات شركته ، ولكنه فى اليوم التالى اتصل بـ (هدى) هاتفيًا ، وقال :

- كيف حالك يا (هدى) ؟

تعرّفت هى صوته على الفور ، فهتفت فى ترحاب :

- كيف حالك أنت ياعمى (محمود) ؟

أجابها فى رصانة :

- بخير والحمد لله :

ثم أردف فى لهجة ، تحمل رنة العتاب :

- هل يرفض زوجك العمل لحساب أقاربك؟ أم ماذا؟

سألته فى دهشة :

- (سمير) ؟!.. إنه لا يرفض أى عمل ، ما دام صاحبه لا يلجأ إلى الخداع .

جاء صوته الغاضب يقول :

- هذا غير صحيح .. أنت تعلمين أننى رجل شريف فى عملى ، ولقد فكرت فى أن يتولى مكتبه حسابات

شركتى ، ولكن سكرتيره قال إنه يرفض تسلُّم أى عمل جديد ، على الرغم من معرفته بقرابتى لك .

شعرت بالدهشة تتسلل إلى عروقها ، وهى تقول فى قلق :

– ولماذا يفعل ذلك ؟

أجابها فى غضب :

– أنا الذى ينبغى أن يسأل هذا السؤال .

ساد الصمت لحظة ، ثم قالت (هدى) :

– لا تغضب يا عمى (محمود) ، سأتصل بمكتبه الآن ، وأعرف السبب .

أنهت (هدى) الاتصال ، ثم أسرعت تطلب مكتب زوجها ، وقد اعتراها قلق خفىّ ، ولم تكد تسمع صوت سكرتيره ، حتى قالت :

– أين (سمير) ؟.. أنا زوجته .

أجابها السكرتير فى احترام :

– لقد غادر المكتب فى العاشرة كعادته يا سيدتى .

هتفت فى دهشة :

– كعادته ؟!.. أين يذهب ؟

خيِّل إليها أن بعض الارتباك قد تسلل إلى صوت السكرتير ، وهو يقول :

– لست أدرى يا سيدتى ، لقد قال إنه مضطر إلى العودة إلى المنزل يوميًّا ، من العاشرة إلى الثانية عشرة .

صمتت وقد ألجمتها المفاجأة ، ثم أسرعت تتدارك نفسها ، وتقول :

– آه .. لقد نسيت ذلك ، إنه لم يصل بعد على أية حال ، ولكننى أردت سؤالك عن سبب رفضكم العمل الذى طلبه منكم عمى (محمود البرماوى) .

قال السكرتير ، فى لهجة من يدافع عن نفسه :

– الأستاذ (سمير) هو الذى رفض يا سيدتى .. لقد أعطى أوامره بعدم قبول أى عمل جديد ، وتصفية كل الأعمال القديمة .

تصلبت قبضتها حول سماعة الهاتف ، ووجدت نفسها تصرخ فى ذهول :

– تصفية الـ ....

بترت عبارتها فجأة ، وبذلت جهداً خارقاً للسيطرة على مشاعرها وانفعالها ، ثم غمغمت فى اقتضاب :

– حسناً .. سأحادثه فى الأمر ، عندما يعود إلى المنزل ..

ولكنها لم تفعل ..

لم تنبس بكلمة واحدة عن الأمر ، عندما عاد (سمير) إلى المنزل ..

وعلى العكس من ذلك، أخذت تبذل جهداً إضافيًا ، للتظاهر بالمرح ، حتى لا يلحظ هو قلقها وانفعالها ..

ولكنها قرَّرت أمراً فى أعماقها ..

قرَّرت أن تتوصَّل إلى سرِّ حزن (سمير) ، وغيابه عن مكتبه لمدة ساعتين يوميًا ..

قرَّرت أن تراقبه ..

وفى اليوم التالى تركته يذهب إلى عمله ، وشيعته

بابتسامة واسعة ، لم تلبث أن فارقت شفتيها ، عندما ابتعد بسيارته ، وأسرعت ترتدى ثيابها ، وأنزلت (أحمد) إلى مسكن والدى (سمير) ، متحججة برغبتها فى التسوُّق ، ثم استقلَّت إحدى سيارات الأجرة ، ومنحت صاحبها مبلغاً محترماً من المال ، فى مقابل التفرُّغ لها طيلة اليوم ، ثم جعلته يقلها إلى مكتب زوجها ، وهناك طلبت منه الانتظار حتى العاشرة .. وفى تمام العاشرة رأت (سمير) يغادر مكتبه ويستقل سيارته ، ويتجه بها إلى الشارع الرئيسى بالمدينة ، وتبعته هى فى سيارة الأجرة ، حتى توقفت سيارته أمام مبنى حديث ، يرتفع إلى جوار المستشفى الجامعى ، ورأته يهبط من سيارته ، ويدلف إلى المبنى فى خطوات واسعة ..

حدَّقت (هدى) فى المبنى بذهول ، وسرَت فى جسدها رعدة ، شملته من قمة رأسها ، حتى أخمص قدميها ..

فقد كان المبنى يحمل اسم (مستشفى الأورام) ..

هبطت من سيارة الأجرة مصدومة ذاهلة ، ونقدت

سائقها أجراً يفوق ما سبق لها أن اتفقت عليه معه ، ثم وقفت جامدة ، تحدّق فى بوابة المستشفى ، دون أن تجرؤ على تتبع (سمير) إلى الداخل ..

هتفت نفسها فى جزع :

– لعله يزور أحد زملائه من الأطباء .. أو لعلها زيارة عمل ..

تردّدت طويلا ، ثم قرّرت أن تقطع شكها باليقين ، فخطت بأقدام مرتجفة إلى داخل المستشفى ، وتقدمت والخوف يملأ نفسها إلى الممرّ ، الذى يضم حجرات الكشف والعلاج ..

وفى منتصف الممر تماماً ، توقفت قدماها دون أن تدرى ، وشعرت ببرودة كالثلج تسرى فى أطرافها ..

هناك .. أمام حجرة العلاج بالإشعاعات ، كان يجلس (سمير) ..

كان يجلس وسط المرضى ، ينتظر دوره للعلاج ..
انتزعت قدميها من الأرض انتزاعاً ، وتقدمت إليه ..

وقفت أمامه تماماً ، دون أن تنبس ببنت شفة ..

رفع هو رأسه إليها فى هدوء واستسلام ، وكأن ظهورها المفاجئ لم يدهشه ..

وكأنه كان يتوقع ذلك يوماً ..

التقت عيناهما فى حزن ، ولوعة ، وأسى ..

من عينيه سالت دموع حزن وألم ..

ومن عينيها سالت دموع لوعة وهلع ..

ودون أن يتبادلا كلمة واحدة ، اتخذت هى مقعداً مجاوراً له ..

مدّت كفها إليه .. ومدّ كفه إليها ..

وتعانق الكفان فى ألم صامت ..

لم يعترض هو ، عندما تبعته إلى حجرة العلاج ، وكأنما قرّر أخيراً ، أن يرفع كل العبء عن كاهله ، ويسمح لها بمشاركته سرّه ..

وأى سرّ كان ..

لقد كشفت (هدى) أن (سمير) يعانى ورماً خبيثاً يندر شفاؤه ، وأنه يعالج بجرعات من الأشعة منذ شهر كامل ، وأن نسبة الشفاء من هذا النوع من الأورام لا يتجاوز الخمسة فى المائة ..

لم تستطع منع دموعها ، التى انهمرت أمام الطبيب المعالج ، وهو يشرح لها ذلك فى أسف ..

وجدت نفسها تتشبث به ، وتهتف فى ألم :

– لابد من وجود علاج ما .. أرجوك يا دكتور .

أزاح الطبيب الكهل كفيها فى حنان وحزن ، وغمغم فى أسف :

– ليت هذا ممكن يا سيدتى .

لم يشترك (سمير) فى هذا الحديث ، وكأنه قد استسلم تماماً لقدره ..

أو كأنه قد حصل على الجواب ذاته من قبل ..

ظل صامتاً ، يتأمل حديثها المتضرع إلى الطبيب ، مكتفياً بدموعه الساكنة ، المستسلمة .

وأخيراً .. وأمام توسُّلات (هدى) ، غمغم الطبيب الكهل :

– ربما لو سافرتما إلى ألمانيا الغربية .

هتفت (هدى) فى لهفة :

– ربما ماذا ؟

تردد الطبيب لحظة ، وكأنه يخشى أن يمنحهما أملا زائفاً ، ثم قال :

– قرأت أخيراً أنهم هناك يجرون تجارب علاجية جديدة ، على هذا النوع من الأورام بالذات و ....

قاطعته (هدى) فى لهفة متزايدة :

– سنذهب يا دكتور .. سنتبع الأمل إلى آخر بقاع العالم .

جذبها (سمير) من يدها ، وقال :

– هيَّا بنا يا (هدى) .

جذبت يدها من يده ، وهتفت فى انفعال :

- انتظر يا (سمير) ، سنحصل على عنوان ذلك المستشفى فى ألمانيا الغربية و ....

قاطعها فى صرامة :

- هيَّا يا (هدى) .

تبعته مستسلمة إلى سيارته ، ولم يكد ينطلق بها ، حتى هتفت :

- سنذهب يا (سمير) .. سنذهب إلى هناك .

ظل يقود سيارته فى صمت ، وكأنما لم يستمع إليها ، على حين واصلت هى فى انفعال ، دون أن تحاول منع دموعها ، التى بللت وجنتيها عن آخرها ..

- لن نستسلم ما دام هناك أمل ..

غمغم فى ضيق :

- كفى يا (هدى) .

عادت تهتف فى انفعال متصاعد :

- سنستخرج جواز سفر فى الغد، وسنذهب معاً إلى ....

قاطعها فى صرامة :

- كلاَّ يا (هدى) ..

سألته فى ذهول :

- ماذا تقول يا (سمير) ؟

أجاب فى صرامة لم تعهدها فيه من قبل :

- إننى لن أذهب إلى أى مكان .. لن أذهب أبداً .

* * *



٦ ـ التضحية ..

انهمرت الدموع غزيرة من عينى (هــدى) ، وهى تحتضن زوجهــا فى لوعة ، وهتفت فى لهجــة أقرب إلى التوسل :

ـ دعنا نذهب إلى هناك يا (سمير) .. أرجوك .

ربَّت (سمير) على شعرها فى هدوء وحنان ، وقال فى لهجة أقرب إلى الحيرة :

ـ هذا مستحيل يا (هدى) .

ابتعدت عنه فى حــدَّة ، حتى كادت ترتطم بجهاز التليفزيون ، بردهة منزلها ، وهى تقول :

ـ لمــاذا يا (سمير) ؟

بدا التردُّد على وجهه لحظة ، ثم غمغم فى ألم :

ـ من أجلكما يا (هدى) .. من أجلك ، ومن أجل (أحمــد) .

حدّقت فى وجهه بذهول ، وهتفت :

ـ ماذا تعنى ؟

لوَّح بكفيه فى حيرة واستسلام ، وقال :

ـ السفر إلى ألمــانيا ، والعلاج هناك سيتكلفان مبلغاً طائلا ، سيستنزف ولا شك كل ما لدينا ، ولو أتت النتائج سلبية ، فسيعنى هذا أن أترككما بلا مورد ، وأنا لا أحبّ لك ، ولابنى أن تعيشا فى فقر من بعدى .

ظلت تحدّق فى وجهه لحظة بذهول ، ثم صرخت فى حنق :

ـ ومن قال لك أننا نقبل هذه التضحية ؟

غمغم فى ألم :

ـ لابد أن تقبلا يا (هدى) .. لابد .

صرخت فى غضب :

ـ كلاً يا (سمير) .. إننا لن نقبل .

ثم عادت تحتضنه وتبكى ، وهى تقول :

ـ هل تظن أننا سنسعد بالمــال ، الذى تدفع حياتك ثمناً له ؟.. كلاً يا حبيبى .. إننــا نفضّــل أن نحيــا فقيرين معك ، على أن نرفل فى الثراء بدونك .

ثم رفعت إليه عينين ضارعتين ، وهتفت وهى تضمه إلى صدرها :

– سنذهب يا (سمير) .. أرجوك .

طال تردُّده ، وهو يضمها إليه فى حنان ، ثم غمغم فى استسلام :

– حسناً يا (هدى) .. سنذهب معاً .

كان وقع الصدمة عنيفاً على العائلتين ..

انهارت والدة (سمير) ، حينما علمت ما يعانيه ابنها ..

بدا والده كالمصدوم ، وهو يردد فى ألم :

– سأبيع المنزل .. سأبيع حتى ملابسى ، حتى يعالج ولدى .

أما والد (هدى)فقد أسرع بسحب كل مدخراته ، ووضعها بين يدى ابنته ..

والدتها باعت مصاغها كله دون تردُّد ..

تدفق نهر من الدموع فى الأسرتين ..

باع (سمير) مكتبه وسيارته ..

باع سنوات كفاحه كلها ، فى استسلام واستكانة ..

حتى (أحمد) الصغير كان يبكى ..

كان يبكى دون أن يدرك عقله الصغير ما يحدث ،

ولكنه شارك الجميع بدموعه ..

وحانت لحظة السفر ..

وقفت الأسرتان تودعان (سمير) و (هدى) فى المطار ، وبينهما (أحمد) الصغير ، الذى يفارقه والداه لأول مرة ..

ولكنه لم يبك ..

كان وكأنه قد قرَّر ألا يزيد من آلام والديه ببكائه ..

ولكنه احتضن والده طويلا ، وقبله كثيراً وهو يقول بلهجته الطفولية :

– إننى أنتظر عودتك يا والدى .

هتفت (هدى) فى حماس ، وهى تحتضن كف (سمير) :

– سيعود بإذن الله يا (أحمد) .

بدت السماء فى هذه الليلة ، وكأنها تشارك الجميع حزنهم ..

بدت مكفهرة ، ملبدة بالغيوم الكثيفة ، التى حجبت الطائرة سريعاً ، وهى تنطلق إلى حيث الأمل ..

الأمل الوحيد ..

* * *

صمتت محدثتى بغتة ، عندما وصلت إلى هـذا الجزء من القصة ، ولم أجرؤ أنا على سؤالها أن تتابع ..

كنت متلهفاً جدًّا ، وقد جذبتنى أحـداث القصة ، إلى معرفة نتائج العلاج ، ولكننى لم أجرؤ على سؤالها ..

كانت هى تبحث عبثاً عن سيجارة إضافية فى علبتها، التى خلت تماماً ، وحينما فشلت فى العثور على واحـدة ، ألقت العلبة بعيداً فى لامبالاة ، وأسرعت أنا أقدّم إليها إحدى سجائرى ، فالتقطتها فى هدوء ، وأشعلتها بقـداحتها الفضية ، ثم التقطت أنفاسها فى شراهة ، ونفثتها فى عمق ، وغمغمت :

- شكراً ..

أجبتها فى لهفة :

- عفواً ..

عاد الصمت ينسج رداءه حولنا ، وقد تركت أنا لها حرية الاستمرار فى القصة ، إلى أن نفضت رماد سيجارتها وقالت :

- هل اختلف رأيك فى القصة الآن ؟

أجبتها فى حماس :

- بلا شك .

ابتسمت ابتسامة باهتة ، وقالت :

- إنه عبث القدر .. أليس كذلك ؟

أجبتها فى شفقة :

- بلى .

ثم أردفت فى اهتمام :

- ولـكن وصفنا القـدر بالعبث ، قد يغضب رجال الدين .

سألتنى فى دهشة :

- لماذا ؟

أجبتها وأنا أشاركها التـدخين ، بإشعال سيجارة أخرى :

- سيقولون إن القـدر لا يعبث ، وإنما هو يقود الإنسان إلى ما هو مكتوب له .

مطت شفتيها ، وقالت فى لامبالاة :

— ربما .

ثم حدَّقت فى عينىَ مباشرة ، وقالت :

— هل يمكنك استنتاج ما حدث ؟

تردَّدت لحظة ، ثم غمغمت :

— ربما .

مالت نحوى ، وسألتنى فى اهتمام :

— ماذا تظنه حدث إذن ؟

طال تردُّدى هذه المرَّة ، ثم قلت فى بطء ، وبصوت خافت للغاية :

— لقد فشل العلاج .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة ، وقالت فى هدوء:

— أنت مخطئ مرَّة أخرى .

أدهشتنى عبارتها هذه المرَّة دهشة غامرة ، فلم تكن تلك النتيجة لتتوافق مع كل ذلك الحزن المرتسم فى عينيها؛ لذا فقد وجدت نفسى أغمغم فى حيرة :

— ماذا حدث إذن ؟

قالت فى اهتمام :

— سيدهشك ما حدث .. استمع إلىَّ جيداً ..

وعادت تواصل روايتها ..

* * *

عاشت أسرتا (سمير) و (هدى) شهراً كاملا ، فى جحيم من العذاب واللهفة والألم والحزن ..

كانوا يجتمعون معاً فى منزل والد (سمير)، فى انتظار مكالمة ، أو خبر عن تفاصيل العلاج ، واحتمالات الشفاء..

شهر كامل فقدت فيه أم (سمير) نصف وزنها ، وازداد والده شروداً وحزناً ..

لم يعد أحد أفراد الأسرتين يضحك ..

لم يعد أحدهم حتى يبتسم ..

حتى (أحمد) ..

لم يكن يضحك أو يبتسم ، وكأنه يشعر بما تعانيه الأسرة كلها ..

لم يحاول أن يسأل عن والديه ، وإنما كان يكتفى بالجلوس صامتاً ، واللهفة تطل فى عينيه الصغيرتين ، حينما يحدث أى اتصال هاتفى بين والديه ، وأسرتيهما ..

مرّة واحدة فقط ، لمح فيها والد (هدى) دمعة حزينة تترقرق فى عينى الصغير ، فضمه إلى صدره فى حنان ، وشاركه دموعاً صامتة ..

وأخيراً .. تحطم جبل الحزن ..

مكالمة هاتفية تموج بالسعادة ، من (هدى) ، حطمت كل هذا الحزن دفعة واحدة ..

مكالمة أعلنت أن (سمير) قد شفى ..

وعاد الأمل ..

* * *



٧ ـ عبث القدر ..

عاد (سمير) و (هدى) إلى مصر ..

عادا وقد أظلتهما السعادة بظلها ، ورسمت ملامحها بإتقان وفن ..

كان لقاءً حارًّا بين الأسرتين وابنيهما فى مطار القاهرة ..

عاصفة من دموع الفرح ، والعناق والسعادة ..

لقد تعلق (أحمد) بعنق والده ، وأخذ يصرخ فى سعادة وفرح ، وهو يغمر وجه أبيه بالقبلات ، وكأنه يهنئه بالشفاء ..

لا أحد يمكنه وصف كل تلك السعادة ، التى ملأت قلوب الجميع ..

اكتفى والدا (سمير) بنهر من دموع السعادة ، وشاركتهما والدة (هدى) ، فى حين هتف والد (هدى) فى سعادة خالصة صادقة :

ـ حمداً لله على سلامتك يا ولدى ، لقد أشرقت مصر كلها بعودتك .

ابتسم (سمير) فى سعادة ، وقال :

ــ ستظل مصر مشرقة ، ما دامت تضم أناساً مثلكم يا عماه .

هتف والد (سمير) فى فرح غامر :

ــ لن يمكنك تصوُّر سعادتى يا ولدى ، إننى أكاد أرسل خطاب شكر للسفارة الألمانية .

تبادل (سمير) و (هدى) نظرات حانية ، ثم التقط هو كفها الرقيقة فى راحته ، واحتضنها فى رقة وحنان ، وهو يقول :

ــ أرسله إلى (هدى) يا أبتاه ، فهى صاحبة الفضل الأول فى شفائى .. لقد قرَّر الأطباء هناك أن نسبة الشفاء لا تتجاوز عشرة فى المائة ، ولكن (هدى) كانت مفعمة بالأمل ، ولقد عكسته على الجميع هناك ، وبعث فى قلوبهم فيضاً من الحماس ، ألهب قدراتهم ، وجعلهم يمارسون العلاج فيما يشبه التحدِّى .

صمت لحظة ، وهو يتبادل نظرة حبّ عميقة مع (هدى) ، ثم أردف :

ــ لن يمكنكم أن تتصوَّروا مدى الحماس والسعادة ، التى شملت المستشفى كله ، حينما أعلن الأطباء نجاح العلاج ، والشفاء التام .

هتفت والدة (سمير) :

ــ حمداً لله على سلامتك يا ولدى .

وقال والده فى فرح :

ــ نحن أيضاً أعددنا لك مفاجأة يا ولدى .

تبادل (سمير) و (هدى) نظرات حيرى ، متسائلة ، ثم قال هو :

ــ أية مفاجأة يا والدى ؟

أشار والده إلى نقطة خارج المطار ، وقال فى حنان :

ــ هاهى ذى يا ولدى .

تألقت الفرحة فى عينى (سمير) ، وهتف فى سعادة :

ــ (عزيزة) ؟!

كان هذا هو الاسم الذى أطلقه على سيارته القديمة ، ولقد أسرع إليها فى سعادة ، وهو يهتف :

ــ كيف حصلت عليها يا والدى ؟

رقص قلب الأب لسعادة ابنه ، وقال وهو يربِّت على كتفه فى حنان :

ــ لقد ابتاعها عم (هدى) ــ الأستاذ (محمود) ــ من الرجل نفسه ، الذى بعته إياها قبيل سفرك ، وأهداها لك بمثابة تهنئة بالشفاء ، وهو يعرض عليك منصب مدير حسابات فى شركته الخاصة بمرتب قدره خمسمائة جنيه فى الشهر .

ترقرقت دمعة سعيدة فى عينى (سمير) ، وغمغم :

ــ يا إلهى !!.

أشارت (هدى) إلى السيارة ، وهتفت فى حماس :

ــ هيَّا يا (سمير) ، قد بنا سيارتك إلى مدينتنا .. إلى الأمل الجديد .

* * *

يبدو أن عينىَّ قد عبرتا عما يجيش به صدرى فى هذه اللحظة ، فقد أوقفت محدثتى سردها ، وابتسمت ابتسامة حزينة ، وهى تقول :

ــ ماذا بك ؟

حاولت أن أبتسم ، ولكننى عجزت تماماً ، وأنا أقول :

ــ حتى هذه النقطة يمكننا أن نكتب كلمة النهاية ، وتصبح القصة متكاملة ، ولكن ....

بترت عبارتى ، وظهر التردُّد واضحاً فى ملامحى ، مما دفعها إلى أن تسألنى :

ــ ولكن ماذا ؟

قلت فى حيرة :

ــ ولكنها لا تبدو النهاية الحقيقية للأحداث .

ازداد الحزن فى ابتسامتها ، وهى تقول :

ــ لماذا ؟

أردت أن أقول إن الحزن الواضح فى عينيها لا يوحى بنهاية سعيدة لقصتها ، ولكن لسانى لم يطاوعنى لقول ذلك ، فاكتفيت بأن أتمتم فى حيرة :

ــ لست أدرى .

[illegible] رأسها متفهمة ، وقالت :

ـ أصاب شعورك هذه المرّة .

اندفع السؤال إلى شفتى بسرعة هذه المرّة :

ـ ماذا حدث إذن ؟

أجابتنى فى هدوء :

ـ سأخبرك ماذا حدث

* * *

انطلق (سمير) بسيارته عائداً إلى مدينته الصغيرة ، التى تبعد عن القاهرة مائة كيلومتر فقط ..

انطلق والسعادة تتقافز من كل خلية من خلاياه ..

كان يشعر أن القدر قد عاد يبتسم له مرة أخرى ..

استعاد سيارته ، وعملاً يدر دخلا ممتازاً ..

عاد إلى ابنه ، وزوجته ..

عاد إلى أسرته سليماً معافى ..

كان سعيداً ، حتى أنه هتف ، دون أن يسأله أحد :

ـ سنستعيد كل شىء (بإذن الله) يا (هدى) .

ابتسمت (هدى) فى سعادة وحنان ، وقالت :

ـ بإذن الله يا (سمير) .

عاد يهتف فى حماس :

ـ سأعود للعمل فى المنزل .. وستؤمن لى شهرتى السابقة عملاً كثيراً .. وسأفتتح مكتباً جديداً ، أكثر أناقة وفخامة من المكتب السابق و ....

ومنعه انفعاله من مراقبة الطريق ..

كان يعبر ذلك المنحنى الخطير عند مدينة (بنها) ، والذى بلغت شهرة الحوادث فيه مبلغاً مخيفاً مرعباً ..

وفجأة صرخت (هدى) ..

صرخ أفراد الأسرتين فى رعب ..

كانت هناك سيارة ضخمة ، من نوع النقل الكبير ، أمام سيارة (سمير) تماماً ..

وحدث التصادم فى جزء من الثانية ..

تلاشت صرخة (هدى) ، فى أعماق الغيبوبة التى أحاطت بها فجأة ..

رأت نفسها تسبح فيما يشبه الغيوم ..

غيوم كثيفة تحيط بها من كل صوب ..

صرخت تنادى زوجها وابنها ..

بدت صرختها بلا صوت ، أو صدى ..

ثم خيِّل إليها أنها تراهما وسط الغيوم ..

رأت (سمير) ينظر إليها فى حزن ، ويدفع (أحمد) نحوها ..

التقطت (أحمد) بين ذراعيها فى لهفة وحنان ، ثم رفعت رأسها إلى (سمير) ، وحاولت أن تهتف باسمه ، ولكن نظرات الحنان فى عينيه منعتها ..

بدا لها وكأنه يتلاشى بين الغيوم ، ويبتعد دون أن تتحرَّك قدماه ..

حاولت اللحاق به ، ولكن قدماها بدتا ثقيلتين ، وكأنهما مسمرتان بالغيوم الكثيفة ..

وابتعد (سمير) .. ابتعد وتلاشى ..

وعادت الغيوم تحيط بها وابنها ، كثيفة عميقة مظلمة ..

وفجأة انقشعت الغيوم ..

فتحت (هدى) عينيها دفعة واحدة ، فرأت نفسها ترقد فوق سرير أبيض صغير ، فى حجرة من حجرات أحد المستشفيات ، وأمامها طبيب شاب ، وممرِّضة صغيرة السن ..

صرخت فى لوعة :

— أين (سمير) ؟

ارتسم الحزن فى عينى الطبيب والممرضة ، وجاءت الإجابة لتعود بها إلى الغيوم الكثيفة ..

لقد رحل (سمير) ..

رحل إلى عالم اللاعودة ..

* * *



٨ ـ المستحيل ..

تصلبت أطرافى ، وشعرت ببرودة شديدة تعترينى ، وأنا أحدِّق فى وجه محدِّثتى عند هذه النقطة ..

كنت أتوقع منها أن تنخرط فى بكاء عميق .

ولكنها لم تفعل ..

لم تذرف عيناها الدموع ، ولكننى رأيتها ..

رأيت دموع متحجرة فى عينيها ..

فى ابتسامتها المريرة ..

فى اختلاجة أصابعها ، وهى تلتقط من علبة سجائرى ، سيجارة أخرى ، فشلت فى إشعالها بقداحتها الفضية ثلاث مرَّات ، ثم نجحت فى الرابعة ، وأغمضت عينيها الخضراوين الواسعتين ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى عمق ، وتعيد قداحتها بأصابع مرتجفة إلى سطح المائدة ..

لم أنطق بكلمة واحدة ..

تركتها تبتلع كل تلك الذكريات المحزنة ، قبل أن تفتح عينيها ، وتحاول الابتسام فى صعوبة ، وهى تقول :

ـ رحل فى هدوء كعادته ، دون أن يؤذى غيره .

غمغمت فى أسف :

ـ كيف ؟

حاولت أن تبتسم مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها حملت كل حزنها ، وهى تقول :

ـ كان هو الضحية الوحيدة للحادث ، ولم تصب (هدى) ، أو ابنها ، أو أسرتاهما إلا برضوض بسيطة ، وساعات من غيبوبة انتهت بسلام .

عدت أغمغم فى إشفاق :

ـ وهكذا انتهت قصة (سمير) و (هدى) .

هزَّت رأسها نفياً ، وقالت فى ألم :

ـ انتهت قصة (سمير) وحده ، وبدأت قصة عذاب (هدى) .

عقدت حاجبىَّ ، وأنا أتساءل فى صوت خافت :

ـ عذابها ؟!

قالت فى حزن :

– نعم عذابها .

قلت فى تساؤل :

– عذاب فقده .

غمغمت فى ألم شديد :

– كان هذا هو الجزء الأكبر من عذابها .

سألتها فى فضول ، فاق شعورى بالأسف :

– وما الجزء الآخر ؟

رفعت إلى عينيها الحزينتين ، وعادت تواصل قصتها ..

* * *

لم تحتمل أم (سمير) صدمة مصرع ابنها ، أمام عينيها ، على هذا النحو ، فتدهورت حالتها الصحية فى سرعة ، وكأنها تتعجل اللحاق بابنها الراحل ، ولم تلبث أن فعلت ذلك فى منتصف إحدى الليالى الباردة ، فى هدوء ..

وبقى والد (سمير) ..

بقى يجترّ حزنه المزدوج ، على ابنه الوحيد ، وزوجته ..

بدا الرجل وكأنما تضاعف عمره عشرات السنوات دفعة واحدة ..

وكذلك بدت (هدى) ..

لقد ظلت تبكى ثلاثة أيام كاملة ، دون أن تجف دموعها ، أوتذوق النوم لحظة واحدة ، حتى تورّم جفناها ، وشحب وجهها ، وذبل جمالها الرقيق ..

(أحمد) أيضاً كان يبكى فى حرارة ..

على الرغم من سنوات عمره القليلة ، كان يشعر بالمأساة ..

لقد أصبح يتيماً فى لحظة من لحظات عبث القدر ..

أصبحت المدينة الصغيرة كلها تعرف قصة الأرملة الشابة ، التى فقدت زوجها ، ولم تتجاوز الثلاثين بعد .

لم تكن تغادر منزلها إلا لماماً ، لتطمئن على والديها ، أو تتسوّق بعض الضروريات ..

كان (سمير) قد أنفق كل ما لديهما من مال فى علاجه ، ولم يعد باقياً لها سوى السيارة ، التى حرصت على إصلاحها بعد الحادث ، واحتفظت بها ذكرى حبيبها الراحل ..

كان والداها يمنحانها المال فى سخاء ، ووالد (سمير) ترك لها معاشه ، وأسلمها قيادة المنزل ، مكتفياً بجلساته الحزينة الصامتة ، وقراءة القرآن الكريم حتى أذان الفجر ..

لم تكن تشعر بالحاجة إلى المال ، ولكنها على الرغم من ذلك قرَّرَت أن تعمل ..

جاء هذا القرار مباغتاً للجميع ، وبالذات لصديقتها الحميمة (فريدة) ، التى هتفت فى دهشة ، وهى تستمع إلى قرارها :

– تعملين ؟!.. لماذا ؟

قالت (هدى) فى ألم :

– العمل هو الشيء الوحيد ، الذى يمكنه أن ينتزعنى من أحزانى ، قبل أن أجنّ .

سألتها (فريدة) فى حيرة :

– وابنك (أحمد) ، ألا يحتاج إلى أمه ، وهو لم يتجاوز الرابعة بعد ؟

هتفت (هدى) فى حدّة :

– يحتاج إلى أم متزنة ، سوّية ، لا إلى أم كاد الحزن يذهب بعقلها .

ثم أردفت ، وقد بدأت الدموع تلتمع فى عينيها :

– إنك لا تتصوّرين ما أعانيه .. إننى أرى (سمير) فى كل لحظة ، وفى كل مكان .. إننى أستيقظ أحياناً ، وأنا أتصوَّر أنه يرقد إلى جوارى ، وفى موعد عودته المعتاد ، أجد نفسى أتزين وأنتظر ، ثم لا ألبث أن أنخرط فى البكاء ، وأعود إلى عالم الواقع .

نظرت إليها (فريدة) فى شفقة وحنان ، ونهضت تضمها إلى صدرها فى عطف ..

كانت (فريدة) صديقة من نوع نادر ..

صديقة وفية مخلصة ، تنبض بالسعادة ، حينما ترى

(هـدى) فرحة ، ويبكى قلبها بدموع الألم مع حزن صديقتها .

كانت تكبر (هدى) بعام واحد ، ولكنها تعتبرها دائماً ابنتها ..

وكثيراً ما ظنهما الناس شقيقتين ، من ترابطهما ، وإخلاصهما المتبادل ..

وشعرت (فريدة) بما تعانيه صديقتها الصدوق ، فقالت وهى تربّت على شعرها فى حنان :

— إذا كنت تظنين العمل سيعاونك على تجاوز حزنك ، فافعلى ، ولا تقلقى بشأن (أحمد) .. سأرعاه فى غيابك .

تطلعت إليها (هدى) فى حنان وامتنان ، وقالت :

— شكراً يا (فريدة) .. إننى لم أقلق على (أحمد) فى غيابى ، فسيرعاه والد (سمير) ، وهو يجد سلواه فى ذلك .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم غمغمت (فريدة) :

— هل تريدين منى أن أعاونك فى العثور على عمل ؟

ابتسمت (هدى) ابتسامة حزينة ، وقالت :

— لقد عثرت عليه بالفعل ، فى شركة عمى (محمود) .

ازدردت (فريدة) لعابها فى صعوبة ، وقالت فى عطف :

— ومتى ستبدئين العمل ؟

أجابتها (هدى) فى حزن :

— غداً بإذن الله .

وتسلمت (هدى) عملها فى شركة عمها ..

تسلمته فى لهفة ، كغريق يتعلق فى طوق النجاة الأخير ..

وانغمست فيه حتى أعماقها ..

وكان عملها بداية لقصة جديدة ..

قصة نسج القدر خيوطها ، وغزلها فى مغزل عبثه ..

ذلك القدر الذى أفقدها أحبَّ أهل الأرض إليها ..

ذلك القدر الذى يهوى اللعب بالقلوب ..

ذلك القدر الذى دفعها للعمل فى شركة عمها ..

لقد ذهبت إلى العمل ، وهى تنوى الاستعانة به لإخماد نار قلبها ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً ..

لقد دفع القدر بها إلى هناك لتلتقى به ..

لتلتقى بـ (وائل) ..

* * *



٩ - قصة جديدة ..

التقت (هدى) بـ (وائل) فى اليوم الأول لعملها فى شركة عمها ..

كان (وائل) طرازاً مختلفاً من الرجال ..

مختلفاً عن (سمير) ..

ولكنه كان جذاباً ..

كانت عيناه السوداوان تقولان الكثير ، دون أن يفصح لسانه عن كلمة واحدة ..

كان مدير قسم الحسابات ، الذى التحقت به (هدى) ، ولقد استقبلها فى اهتمام واضح ، وتعلقت عيناه بعينيها ، وكأنه يتساءل عن سرِّ الحزن المطل منها ..

وأرخت (هدى) جفنيها فى خجل وخوف ..

شرح لها (وائل) عملها فى كلمات موجزة ، وأخبرها أنها ستشاركه حجرة مكتبه ، وستكون نائبة مدير قسم الحسابات ..

وأصبحا يلتقيان كل صباح ، بحكم عملهما معاً ..

فى البداية لم تكن (هدى) تتبادل معه إلا الحديث

الخاص بالعمل ، على حين كان هو يتحدث إليها كثيراً فى بساطة ، يخالطها بعض المرح ..

ومع مرور الوقت ، بدأت (هدى) تبتسم لعباراته المرحة ..

وذات يوم ضحكت بصوت مرتفع ، استجابة لدعابة أطلقها فى خفة ظل ..

يومها بترت عبارتها بغتة ، وانتابها شعور قوى بالندم ، وتأنيب الضمير ..

كيف تضحك فى مرح ، و (سمير) لم يفارق الحياة إلا منذ خمسة أشهر على الأكثر ؟..

انتابها الندم ، حتى أن عينيها أغرورقتا بالدموع ، وشحب وجهها فى لحظة واحدة ..

وفهم (وائل) ما تعانيه ..

نهض من خلف مكتبه ، ووقف أمام مكتبها يتأملها فى صمت بعض الوقت ، ثم غمغم فى لهجة عطوف حانية :

ـ لماذا يا (هدى) ؟

كانت هــذه هى المرَّة الأولى ، التى يخاطبها فيها

باسمها مجرَّداً ، ولقد لاحظت هى ذلك ، ولكنها تجاهلته وهى تقول :

ـ ماذا تعنى ؟

قال فى حنان :

ـ وفاة زوجك الراحل (رحمه الله) ، لا تعنى أن تعيشى عمرك كله فى حزن وأسى ، لو أنه حىٌّ ما وافق على ذلك .

قالت فى حزن :

ـ لا يمكننى أن أنساه .

هتف فى حماس :

ـ فليكن .. ولكن دموعك لن تعيد إليه روحه ؟

ـ ولكنها تعلن عن حياته فى قلبى .

ـ أنت أيضاً لك حياة .

ـ لقد سلبها موته ؟

ـ خطأ .. أنت بعد شـابة ، لم تتجاوز الثلاثين ، ويمكنك الزواج مرَّة ثانية .

رفعت (هدى) عينيها إليه فى دهشة ، وهتفت فى استنكار :

– الزواج ؟!

قال فى حزم :

– نعم .. الزواج .

عادت تطرق برأسها مغمغمة :

– من ذا الذى يعوِّضنى حنان (سمير) ، وحبه .

رقَّ صوته ، وهو يتمتم فى حنان :

– دعينى أحاول .

رفعت عينيها إليه مرَّة أخرى فى ذهول ، وهتفت :

– ماذا تقول يا (وائل) ؟

هى أيضاً خاطبته دون ألقاب ، وهو أيضاً تجاهل ذلك ، وهو يشد قامته قائلاً :

– إننى أسألك الزواج يا (هدى) .

لم تكد (فريدة) تسمع من (هدى) تفاصيل هذا الحوار ، حتى صمتت لحظة ، وعقدت حاجبيها وهى تسأل (هدى) فى اهتمام :

– وبمَ أجبته ؟

هتفت (هدى) فى استنكار :

– لقد رفضت طبعاً .

سألتها (فريدة) فى هدوء :

– ولِمَ ؟

نظرت إليها (هدى) فى دهشة ، وكأنها لا تصدِّق تساؤلها المختصر ، ثم قالت :

– ماذا تقولين يا (فريدة) ؟ .. لم تمض على وفاة (سمير) ستة أشهر بعد .

قالت (فريدة) فى حنان :

– هل ستقضين عمرك كله بلا زواج ؟

هتفت (هدى) فى صرامة :

– بالطبع .

نهضت إليها (فريدة) ، وأحاطت كتفها بذراعيها فى ودٍّ خالص ، وقالت فى هدوء :

– أنت ما تزالين شابة يا (هدى) ، ومن الخطإ أن تحكمى على نفسك بهذا الحكم القاسى .

– هل تريديننى أن أخون (سمير) ؟
– الخيانة دائماً لشخص حىّ ، وليس للموتى .
– إنه حىٌّ فى قلبى .
– ولكنه لا يرضى أن تهدرى شبابك من أجله .
– ولا يرضى أن أتزوَّج غيره أيضاً .
– من أدراك ؟
– قلبى .
– اسأليه مرَّة أخرى إذن ، وسيجيبك أن (وائل) إنسان ممتاز .
– فليتزوَّج غيرى .
– إنه يريدك أنت .
– أنا لا أريده .
– هل تراهنين ؟
توقف حديثهما فجأة عند هذه النقطة ، ثم غمغمت (هدى) فى حيرة :
– لن يقبل (أحمد) زواجى برجل آخر ، أنت تعلمين كم كان يحبّ أباه .

ربَّتت (فريدة) على كتفها فى حنان ، وقالت :
– إننى أطلب منك الزواج من أجل (أحمد) بالذات ، فتربية الطفل تحتاج إلى حزم الرجل ، وعطف المرأة فى آن واحد .
تردَّدت (هدى) لحظة ، ثم هتفت فى حزم :
– لن يمكننى ذلك يا (فريدة) .. لن يمكننى أبداً ..
ولكنها لم تتوقف عن التفكير فى الأمر ..
بدت لها مقابلة (وائل) شاقة فى اليوم التالى ، ولكنه لدهشتها استقبلها فى هدوء ، وتحدث معها بنفس المرح ، وكأن شيئاً مما حدث أمس لم يكن ..
كان طبيعيًّا ، حتى أن (هدى) شعرت بالخجل ، لهذا الأسلوب الجاف ، الذى رفضته به ، وحاولت أن تعود إلى التعامل الطبيعى معه ..
وكان ذلك عسيراً ..
ومضت الأيام بطيئة ، متماثلة ، و (وائل) مستمر على معاملته المهذبة معها ، دون أن يشير إلى حديثهما السابق عن رغبته فى الزواج منها ..

وتضاعف شعورها بالخطإ نحوه ..

وبدأ عقلها يناقش الأمر فى هدوء ، ودون تحيز أو تعصُّب ..

شعرت أنه لم يخطئ حينما طلب منها الزواج .. من حقه أن يطلب ، ومن حقها أن ترفض ..

وأسلوبه معها بعد رفضها جعلها تحترمه كثيراً ..

أصبحت تفكر فى عرضه طوال الوقت ، حتى كان يوم بدت فيه شاردة ، وهى تجلس أمام والد (سمير) ، فتطلع إليها فى حنان ، وقال :

– ماذا يقلقك يا بنيتى ؟

انتفضت ، وقد تصوَّرته يقرأ أفكارها ، وقالت :

– لا شىء يا عماه .. لا شىء .

ابتسم الرجل فى عطف ، وشعرت بسؤال حائر فوق شفتيه ، تردَّد طويلاً قبل أن يقول فى لهجة حنون :

– لماذا لا تتزوَّجين يا (هدى) ؟

حدَّقت فى وجهه بدهشة ، وهتفت :

– أتزوَّج ؟!

اقترب منها ، وضمها فى حنان أبوى ، وقال :

– هل تتصوَّرين أننى سأحزن لو تزوَّجت ؟ .. كلاَّ يا بنيتى .. لقد فقدت ولدى الوحيد ، واعتبرتك ابنتى بدلاً منه ، وأنا لا أحبّ لابنتى أن تضيع شبابها فى الحزن وحده .

غمغمت فى حزن ، وهى تستسلم لحنانه :

– هل أنسى (سمير) ؟

هزَّ الوالد رأسه نفياً ، وحاول أن يمنع دمعة انحدرت على خده ، وهو يقول :

– لن ينساه أحد منَّا يا بنيتى ، وزواجك مرَّة أخرى ، لا يعنى نسيانك له ..

لم تعقِّب (هدى) على قول حميها ، ولكن فكرها قفز إلى (وائل) ..

لقد رفضته من قبل ، فكيف تدعوه لطلب الزواج منها مرَّة أخرى ؟ ..

عرضت الأمر على صديقتها الحميمة (فريدة) ، فأجابتها :

ـ يمكنك أن تدفعيه إلى تكرار عرضه بالطبع .

هتفت فى يأس :

ـ كيف ؟

مالت (فريدة) نحوها ، وقالت :

ـ بتبديل أسلوبك الجاف فى التعامل معه .

ظهرت الحيرة فى عينى (هدى) ، وقالت :

ـ هل تظنين ذلك ؟

هتفت (فريدة) فى حماس :

ـ بالطبع .

وحاولت (هدى) ..

حاولت وفشلت ..

لم يكن من السهل عليها أن تعلن قبولها لرجل ، بعد أن رفضته ..

هكذا يصنع المجتمع الشرقى بالنساء ..

يجعلهن دائماً مستسلمات ، خاضعات ، منتظرات للخطوة التى يقدم عليها الرجل ..

ولقد أقدم (وائل) ..

لم تدر (هدى) لماذا فعل ، ولكنه فعل ..

كان ذلك بعد الذكرى السنوية لوفاة (سمير) ، بأسبوع واحد ، عندما نهض (وائل) من خلف مكتبه ، وتقدَّم منها بخطوات ثابتة ، ووقف أمامها صامتاً ..

خفق قلبها بمزيج من الانفعال والخوف ، وحاولت التظاهر بعدم ملاحظة ذلك ، ولكن ارتجافة أصابعها فضحت مكنون نفسها ، ولقد تحوَّل ارتجافها إلى رعدة قوية ، حينما همس (وائل) فى هدوء :

ـ (هدى) .

رفعت عينيها إليه فى بطء ، فالتقت بعينيه ، وبحنانهما الدافق وهو يردف :

ـ أمازلت ترفضين الزواج منى ؟

أسبلت جفنيها فى خجل ، وغمغمت :

ـ كلاَّ يا (وائل) ..

وبدأت فى حياتها قصة جديدة ..

* * *

١٠ – وابتسم القدر ..

عادت الابتسامة إلى شفتى (هدى) ، بعد خطبتها الرسمية لـ (وائل) ..

عادت تشعر بالحياة ..

وكان (وائل) إنساناً ممتازاً للغاية ..

لقد أصرَّ على أن يبتاع لها شبكة جديدة ، وكأنها عروس لأول مرَّة ..

ولقد نجح بلباقته فى اجتذاب (أحمد) ، ومحو ذلك الحزن الذى ظل يملأ وجهه الصغير طويلاً ..

وكانت (هدى) تطاوعه فى كل ما يطلب ، عدا أمر واحد ..

لقد رفضت أن تقيم حفل زفاف جديد ، وأن ترتدى ثوب الزفاف الأبيض للمرَّة الثانية ..

ولم يعترض (وائل) على رفضها طويلاً ..

لقد تفهم مشاعرها ، وتركها تتخذ ما يناسبها من إجراءات ..

وبحث (وائل) فى البداية عن شقة ، تضمه مع

زوجته وابنها ، ولكن والد (سمير) أصر على أن يقيما فى شقة (سمير) ، وقال إنه سيعتبر (وائل) تعويضاً له عن ابنه الراحل ، ولم يملك (وائل) و (هدى) إلا الموافقة .

وفى حفل عائلى صغير ، تم عقد قران (هدى) و (وائل) ..

كان الجميع سعداء بالحفل ، وبالعروسين ..

حتى (أحمد) الصغير ، والذى كثيراً ما يبدو وكأن عقليته تفوق عمره كثيراً ، كان فرحاً ، ولقد قبَّل والدته فى حنان ، وقال لها إنها تبدو جميلة هذا المساء ، وقبَّل (وائل) فى احترام ، ثم ناداه بلقب (بابا) .. وكأنه قد فهم وضعه الجديد ..

كان يوماً ابتسم فيه القدر .. وتم فيه زفاف (وائل) و (هدى) ..

* * *

صمتت محدِّثتى ، والتزمت الصمت بدورى ..

كنت واثقاً من أن هذه ليست نهاية القصة .. وكنت أنتظر سماع بقية الأحداث ، ولاحظت هى ذلك بلا ريب فقالت :

– هل تعتقد أن (هدى) قد أخطأت بزواجها مرَّة ثانية ؟

هززت رأسى نفياً ، وقلت فى هدوء :

– كلاَّ بالطبع .

تنهدت فى حزن ، وقالت :

– لقد كان هذا رأى الجميع ، وكان من الممكن أن تنتهى أحزان (هدى) تماماً ، بعد هذا الزواج ولكن ....

عقدت حاجبىَّ ، وأنا أسألها فى قلق ولهفة :

– ولكن ماذا ؟

مطَّت شفتيها الجميلتين ، وهى تهزّ رأسها فى أسف ، قائلة :

– ولكنه عبث القدر مرة أخرى .

حاولت السيطرة على مشاعرى ، ولكننى فشلت تماماً ، وأنا أسألها فى فضول :

– ماذا حدث هذه المرَّة ؟

أجابتنى فى لهجة حزينة :

– حدث الكثير ..

ثم واصلت روايتها ..

* * *

كان (وائل) يختلف عن (سمير) فى كثير من الأشياء ، ولكنه كان زوجاً جيداً ..

كان حنوناً عطوفاً متفهماً ..

ولقد أحبه (أحمد) ..

كان (وائل) و (هدى) ، يذهبان إلى عملهما كل صباح ، ويتركان (أحمد) لوالد (سمير) ، أو لوالدى (هدى) ، ثم يعودان إلى المنزل فى الثالثة ، فيستقبلهما (أحمد) فى فرح وسعادة ، ويتناول الثلاثة طعام الغداء فى جوّ يسوده المرح ، ثم يعود (وائل) وحده إلى الفترة المسائية من العمل ، ويستقبله (أحمد) و (هدى) بابتسامة واسعة ، لدى عودته فى التاسعة مساءً ، ويقضى (وائل) وقتاً طويلاً فى اللعب مع (أحمد) ومداعبته ، حتى ينام الصغير ، ويأوى (وائل) و (هدى) إلى فراشهما ..

وفى أيام الإجازات ، كان (وائل) يصحب (أحمد) و (هدى) إلى نزهات جميلة ، تزيل عن الجميع تعب الأسبوع كله ..

وبدأ (وائل) يحتل مكانة (سمير) ..

احتل مكانه فى قلب (هدى) ، وفى نفس (أحمد)..

احتل سيارته ، ومنزله ، وعائلته ..

وكان الأمر يسير فى هدوء وسعادة ، حتى كان يوم بدا فيه (وائل) شارداً ، وهو يأوى مع (هـدى) إلى فراشهما ، فسألته هى فى حنان :

– ماذا بك ؟

غمغم فى ضيق :

– لا شىء .

عادت إليها فجأة مشاعر القلق ، التى انتابتها فى موقف مماثل مع (سمير) ، فاعتدلت فى فراشها ، وعادت تسأله فى توتر :

– ماذا بك يا (وائل) ؟

ظهر الضيق مختلطاً بالتوتر فى ملامحه ، ثم قال :

– أنت تعلمين أننى أحبّ (أحمد) .. أليس كذلك؟

أجابته فى قلق :

– بلا شك .

اعتدل جالساً ، وقال فى حدَّة مفاجئة :

– لماذا لا نمنحه شقيقاً أو شقيقة إذن ؟

تطلعت إليه فى دهشة ، وغمغمت :

– لم يحن الوقت بعد .

فوجئت به يصرخ فى حنق :

– لماذا ؟

ثم غادر الفراش ، وأشعل سيجارة ، وهو يقول فى توتر :

– لقد أنجبت (أحمد) بعد فترة قصيرة من زواجك بـ (سمير) ، ما الذى يمنع أن ننجب ابننا بعد فترة مماثلة .

شعرت بما يعانيه من ضيق ، فقالت فى هدوء :

– لقد تزوَّجنا منذ أربعة شهور فحسب .

ابتسم فى سخرية تمتزج بالمرارة ، وقال :

– ألا تكفى للحمل ؟

تنهدت (هدى) ، وسألته فى توتر:

– ماذا تريد يا (وائل) ؟

هتف فى غضب :

- أريد أن أحيا حياة طبيعية ، أريد ابناً .

كانت قد قرَّرت منذ زواجها ، أن تؤجل إنجابها بعض الوقت ..

لم تكن تدرى تأثير قدوم الطفل الجديد على (أحمد) .

كانت قد قرَّرت ذلك ، ولكنها لم تحاول مضاعفة غضب (وائل) ، فقالت فى هدوء :

- حسناً يا (وائل) .. سيكون لنا ابن .

شعرت بالراحة تسرى فى ملامحه ، وتقدَّم منها فى حنان ، وقال :

- اغفرى لى ثورتى يا (هدى) ، ولكن مداعباتى لـ (أحمد) جعلتنى أتمنى ابناً من صلبى .

ابتسمت فى حنان ، وقالت :

- لن تنتظر طويلاً بإذن الله يا (وائل) .

ولكن هذا الطفل الجديد لم يأت ...

أوقفت (هدى) كل وسائل منع الحمل ، التى تتبعها ، ولكن الطفل لم يأت ..

وبدأت علاقة (هدى) بـ (وائل) تتوتر ..

وذات يوم ، اصطحبت صديقتها الحميمة (فريدة) ، إلى أشهر أطباء أمراض النساء والتوليد فى المدينة الصغيرة ، وفحصها الطبيب فى عناية ، ثم قال :

- لا يوجد ما يمنعك من الحمل والإنجاب يا سيدتى .

سألته (هدى) فى قلق :

- لماذا تأخر الحمل هذه المرَّة إذن ؟

هزَّ الطبيب كتفيه ، وقال :

- ربما كان زوجك هو المسئول ، وهذا شائع الحدوث .

لم يكد (وائل) يسمع منها هذه العبارة ، حتى صرخ فى استنكار :

- أنا ؟!.. إنه طبيب جاهل .. ما من شك فى هذا .

احتملت (هدى) ثورته ، وقالت فى هدوء :

- لقد اقترح تحليلا خاصًّا و ..

صرخ (وائل) فى غضب :

- فليذهب وتحليلاته إلى الجحيم .

صاحت (هدى) فى غضب :

- فليذهب أينما يذهب ، أنت الذى تتعجل الإنجاب لا أنا .

حدَّق (وائل) فى وجهها بغضب ، وضغط أسنانه فى قوَّة ، وهو يقول :

- أنت .. أنت ..

ثم اندفع فجأة ، مغادراً المنزل ..

لم يعد (وائل) فى تلك الليلة ..

قضت (هدى) ليلتها وحيدة ، وهى نهب للقلق والتوتر ..

كانت تخشى أن تفقد زوجها الثانى ، وأمنها مرة ثانية ..

لا تستطيع أن تقول أن حبها لـ (وائل) ، كان يماثل حبها لـ (سمير) ، ولكنها كانت تحبه كزوج ، ولم يكن من السهل عليها أن تفقده ..

أخفت تماماً خبر مغادرة (وائل) للمنزل ، حتى ذهبت إلى عملها فى اليوم التالى ، دون أن تذوق قطرة واحدة من النوم طوال الليل ..

وهناك التقت به ..

كان يبدو خجلاً ، وكأنه يعترف بخطئه ، واستقبلها فى حنان ، وسألها فى جزع ، وهو يلمح ذبول وجهها ، وشحوبها :

- يا إلهى !!.. هل آلمتك إلى هذا الحدّ ؟

أجابته فى ضعف :

- إننى أسعى لسعادتك فحسب يا (وائل) .

التقط كفها الرقيقة فى راحته ، واحتضنها فى دفء ، وقال فى لهجة أقرب إلى الاعتذار :

- سأجرى التحليل المطلوب .

غمغمت وهى ترخى جفنيها فى استكانة :

- إذا كان هذا يرضيك يا (وائل) .

ابتسم فى حنان ، وقال :

- سيرضينا هذا معاً يا حبيبتى ، وسيحصل (أحمد) على شقيق يربطه بوالده الجديد .

عادت السعادة تملأ قلبها ، وهى تغمغم :

- هذا ما أرجوه يا (وائل) ..

ولكن القدر كان لها بالمرصاد ..

لم يشأ أن يبسط لها بساط السعادة ..

لقد أجرى (وائل) التحليل اللازم ، وجاءت النتيجة سلبية ..

إن (وائل) لن يمكنه أن يصبح أباً ..

* * *



١١ ـ عاد العبوس ..

عاد القدر يعبس فى وجه (هدى) بعد هذا الكشف..

لقد تلقى (وائل) الخبر فى ذهول ، وظل صامتاً طوال طريق العودة إلى المنزل ، وشاركته (هدى) صمته فترة طويلة ، ثم قالت فى حنان :

ـ لن يضيرنا هذا كثيراً ، فلدينا (أحمد) .

أجابها فى لهجة قاسية ، صدمت مشاعرها :

ـ إنه ابنك أنت .

غمغمت فى دهشة :

ـ إنه ابننا معاً يا (وائل) .

أوقف (وائل) السيارة بغتة ، وصاح فى غضب :

ـ كلاً يا (هدى) .. إنه ابنك أنت، وابن (سمير) .

قالت فى ألم :

ـ ولكنه يناديك بلقب (بابا) .

لوَّح بذراعه فى حدَّة حتى كاد يلطمها ، وهو يقول فى حنق :

ـ إنه لقب كاذب ، غير حقيقى .

مالت (هدى) نحوه ، وحاولت تهدئته وهى تقول فى عطف :

– (وائل) .. نتيجة التحليل لا تقلقنى على الإطلاق

قال فى قسوة :

– إنها تقلقنى أنا .

عادت تقول فى حنان :

– لا مبرِّر لكل هذا الضيق والقلق يا (وائل) ، عدم قدرتك على الإنجاب مجرَّد مرض ، لا يختلف عن أى مرض آخر ، ثم إن الله (سبحانه وتعالى) قد وهبك النجاح والوسامة ، والمرء لا يحصل على كل شىء فى الدنيا و ....

صرخ مقاطعاً فى غضب :

– كفى مناقشات بيزنطية .

تألقت دمعة حيرى فى عينيها ، وهى تقول :

– ولكن يا (وائل) .

صرخ فى غضب هادر :

– كفى .

ولم تجرؤ هى على التفوُّه بكلمة أخرى زائدة ..

لم تكن عدم قدرته على الإنجاب ، تثير فيها أدنى قدر من القلق ..

ولكنها كانت تدمره تدميراً ..

لقد بدأ يكثر من غيابه عن المنزل ، ويقضى وقته القليل داخله عابساً ، صامتاً ..

لم يعد يلعب مع (أحمد) ، أو يداعبه ، بل تحوَّلت معاملته له إلى نوع من القسوة ، جعل الصغير يبتعد عنه بدوره ..

عاد الحزن يكسو وجه (أحمد) ، وبدأ ينظر إلى زوج أمه كغريب ، يقيم معهما قسراً ..

لم يعد (وائل) و (هدى) يتبادلان الحديث أبداً ..

حتى فى أثناء وجودهما معاً فى الشركة ..

حاولت (هدى) أكثر من مرة ، أن تنتزعه من كل هذا الحزن ، ولكنه كان يتجاهل محاولاتها ، ويقابلها فى صرامة وقسوة ، حتى كفت عنها تماماً ..

عاد الحزن يظل العائلة بظله ، و (هدى) تحاول جاهدة الاحتفاظ بالأمر سرًّا ..

لم يكن هناك من يعلم بالأمر سوى (فريدة) ، التى حاولت بدورها إعادة السعادة إلى الأسرة الصغيرة ، ولكنها فشلت أيضاً ..

وذات ليلة .. كانت (هدى) تجلس مع (فريدة)، فى انتظار عودة (وائل) ، عندما هتفت (هدى) فى حزن :

– يبدو أن القدر يأبى علىَّ أن أعيش مرة واحدة ، حياة أسرية سعيدة .

تأملتها (فريدة) فى إشفاق ، وقالت فى حنان :

– لا تقولى هذا يا (هدى) .

تدفقت الدموع فجأة من عينى (هدى)، وهى تقول:

– هل تظنين أننى أبالغ ؟

نهضت إليها (فريدة) ، واحتضنتها فى حنان ، وغمغمت :

– ستعود إليك السعادة يا (هدى) .. صدِّقينى .

تركت (هدى) العنان لدموعها ، وهى تقول :

– متى يا (فريدة) ؟.. متى ؟

هتفت (فريدة) فى إشفاق :

– قريباً يا (هدى) ، قريباً جدًّا .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى سمع الاثنان صوت مفتاح (وائل) يدور فى الباب ، ورأياه يدخل فى هدوء ، ويغلق الباب خلفه ، ثم ينظر إليهما بنظرات باردة ، لا تحمل أدنى أثر للترحاب ، فشعرت (فريدة) بالحرج ، وهى تقول :

– مرحباً يا أستاذ (وائل) .. كيف حالك ؟

ظل صامتاً ، يتأملهما بنفس البرود لحظة ، ثم غمغم :

– أهلا .

وأسرع إلى حجرة النوم ، وأغلق بابها خلفه ..

التقطت (فريدة) حقيبتها فى حرج ، وقالت فى ارتباك :

– سأنصرف الآن يا (هدى)، وسأنتظرك فى القريب بإذن الله .

انصرفت (فريدة)، وتوجَّهت (هدى) إلى حجرة النوم ، وأغلقتها خلفها ، ووقفت تنظر فى حيرة إلى

(وائل) ، الذى لم يكن قد بدل ثيابه بعد ..
وبعد فترة طويلة من الصمت ، قالت فى هدوء :
ـ هل أعد لك طعام العشاء ؟
أجابها فى برود :
ـ كلاً .. سأتناول عشائى فى الخارج .
اتسعت عيناها فى دهشة ، وهتفت :
ـ فى الخارج ؟!
التفت إليها فى برود ، وقال فى تحدٍّ :
ـ نعم .
تمالكت أعصابها ، وهى تقول :
ـ أهى دعوة خاصة ؟
أجاب فى اقتضاب :
ـ نعم .
ازدردت ريقها فى محاولة للسيطرة على أعصابها ، وقالت :
ـ ألا يمكننى الذهاب معك ؟
أجاب مرة أخرى فى اقتضاب وبرود :

ـ كلاً .
شعرت بغضب يملأ نفسها من أسلوبه الجاف ، فقالت فى حدَّة :
ـ من صاحب الدعوة ؟
عقد ساعديه أمام صدره ، وقال فى برود :
ـ ليس من حقك أن تسألى .
لم تعد تستطيع الاحتمال ، فقالت فى غضب :
ـ بل من حقى أن أسأل يا (وائل) .
ابتسم فى سخرية ، وتحرَّك وكأنه ينوى الخروج ، دون أن يجيب تساؤلها ، فأوقفته بكفها فى حدَّة ، وقالت فى ضيق :
ـ ما الذى أخطأت فيه يا (وائل) ، لتعاملنى بهذا الأسلوب ؟
استدار إليها فى هدوء ، وقال فى برود :
ـ أى أسلوب ؟
هتفت فى حنق :
ـ هذا الأسلوب الجاف السخيف .

قال فى برود :

ـ سأعاملك بالأسلوب الذى يحلو لى .

صرخت فى غضب :

ـ لن أحتمل ذلك .

هزَّ كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ ومن طلب منك الاحتمال ؟

بذلت (هدى) جهداً خارقاً للسيطرة على أعصابها ، وهى تقول :

ـ ماذا تريد بالضبط يا (وائل) ؟

ابتسم فى سخرية ، وقال :

ـ أريد أن أذهب إلى دعوة العشاء وحدى .

وجدت نفسها تصرخ فى صوت مرتفع :

ـ لن تذهب .

امتزجت صرختها بصرخة صغيرها ، وهو يهتف فى ذعر :

ـ ماما !!

رأته يعبر باب حجرة نومها ، ويتعلق بها باكياً ، وهو يهتف :

ـ لماذا تصرخين يا أماه ؟

كان صراخهما قد انتزع الصغير من فراشه ، فضمته إليها فى حنان ، ورفعت عينيها إلى (وائل) فى عتاب ..

خيِّل إليها أنها لمحت نظرة حنان فى عينى (وائل) ، لم تلبث أن تلاشت ، وحلت محلها نظرة قاسية ، وهو يقول :

ـ أعيدى الصغير إلى فراشه .

قالت فى صرامة :

ـ ليس قبل أن نحسم هذا النقاش .

عقد حاجبيه فى غضب ، وقال :

ـ سأذهب .

هتفت فى غضب مماثل :

ـ لن تذهب .

اقترب منها فى تحدٍّ ، وقال :

ـ من يجرؤ على منعى ؟

أجابته فى صرامة ، وهى تضم صغيرها الخائف ، وكأنها تستمد منه قوتها :

— أنا .
لاحت فى عينيه نظرة ساخرة ، وهو يقول :
— حسناً يا (هدى) ، هل تريدين معرفة صاحب الدعوة ؟
أجابته فى لهفة :
— نعم .
أشعل سيجارته فى بطء ، ونفث دخانها فى هدوء ، ثم نظر إليها فى تحدٍّ ، وقال :
— إنها صديقة لى .. صديقة تفوقك جمالا وأنوثة .
هبطت عليها عبارته كالصاعقة ..
لم تفهم سبب هذا التحوُّل المفاجئ فى شخصيته ..
لم تدر لماذا يتعمد خيانتها وإهانتها ، على هذا النحو الواضح ..
ولم تستطع النطق بكلمة واحدة ..
ظلت تلاحقه بعينيها الذاهلتين ، حتى غادر المنزل ، وأغلق الباب خلفه ..
وشعرت فى هذه اللحظة أنه قد غادر قلبها أيضاً ..
غادره إلى الأبد ..

* * *

١٢ ـ لماذا ؟

أطفأت محدثتى سيجارتها ، وسط المنفضدة ، التى امتلأت عن آخرها بأعقاب السجائر المحترقة ، ورفعت رأسها إلىَّ فى بطء ، وقالت :
— لماذا تظن أنه فعل ذلك ؟
فكرت فى الأمر قليلا ، ثم قلت فى تروٍّ :
— لدىَّ تفسيران ، ولكننى لا أجرؤ على الجزم بأحدهما ، ما دمت لم أتمعن فى دراسة نفسية (وائل) .
اعتدلت ، ومالت نحوى فى اهتمام واضح ، وقالت :
— أسمعنى إياهما ، وسأساعدك فى ترجيح أحدهما .
تنحنحت ، كما يفعل المحاضر ، قبل أن يلقى محاضرته على رهط من المستمعين ، وقت فى هدوء :
— لو أننا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر رجل ، كشف أن رجولته ليست كاملة ، كما قد يظن هو ، فسيكون مبعث أسلوبه هذا ، هو رغبته فى إثبات تفوقه كرجل ، وخاصة للمرأة الوحيدة ، التى تعرف سرَّه .

أومأت برأسها فى اهتمام ، وكأنها توافقنى على ما أقول ثم قالت :

ـ والتفسير الآخر .

قلت فى هدوء :

ـ أن يكون غارقاً حتى أذنيه فى حبّ (هدى) ، حتى أنه يريدها أن تتركه دون أن تتأسى و .....

أوقفتنى نظرتها ، التى تعبر عن عدم اقتناعها ، فأردفت مغمغماً :

ـ ربما .

هزّت رأسها نفياً فى قوة ، وقالت فى انفعال :

ـ ما حدث بعد ذلك يستبعد هذا التفسير تماماً .

أسرعت أقول فى لهفة :

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

عادت تروى ...

* * *

ظلت (هدى) متيقظة ، تتميز غيظاً ، فى انتظار عودة (وائل) ..

أخذ عقلها يقلب الأمر على كل الوجوه ، فى محاولة للبحث عن تفسير منطقى لتصرُّفه ..

راجعت كل تصرُّفاتها معه منذ زواجهما ، ولكنها لم تجد سبباً واحداً يدفعه إلى ذلك ..

وفى الثانية والنصف صباحاً ، عاد (وائل) ..

عاد وعيناه تحملان نفس النظرة المتحدّية ..

اعترضت (هدى) طريقه ، وقالت فى حنق :

ـ لن أسمح لك بإهانتى بهذا الأسلوب .

نظر إليها فى سخرية ، وأخرج من جيبه منديلا صغيراً ، ألقاه فوق الفراش ، وهو يقول فى تحدٍّ :

ـ ومن قال إننى أطلب منك الإذن بذلك ؟

حدّقت (هدى) فى وجهه بذهول ..

بدا لها مختلفاً تماماً عن (وائل) ، الذى تزوّجته ..

التقطت المنديل الصغير ، وقلبته أمام عينيها فى توتر ..

وفجأة توقفت نظراتها عند بقعة حمراء تلوّثه ..

كانت بقعة من أحمر شفاه ..

ألقت (هدى) المنديل فى غضب ، وصاحت فى ذهول :

— كيف تجرؤ ؟

أجابها فى برود :

— أجرؤ على ماذا ؟

هتفت دون أن تحاول منع دموعها ، التى انهمرت غزيرة :

— على خيانتى .

أخذ يخلع رباط عنقه فى هدوء ، وكأنه لم يسمعها ، فعادت تهتف :

— أنت خائن .

واصل خلع ملابسه دون أن يلتفت إليها ، فجذبته من كتفه فى قوة ، وقالت وهى ترتجف من شدة غضبها :

— لن أسمح لك بذلك .

دفع يدها بعيداً فى غضب ، وصاح :

— من أنت .. حتى تسمحى ، أو لا تسمحى .

بلغ منها الغضب ذروته ، فهتفت فى غضب :

— أنا زوجتك .

أطلق ضحكة ساخرة ، مزّقت مشاعرها كخنجر مسموم ، فشحب وجهها وهى تقول :

— ألا توجد أية أهمية لذلك فى نظرك ؟

هزَّ كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

— كلاً بالطبع .

شعرت بعروقها تنتفض غضباً ، فقالت فى حزم :

— طلقنى إذن يا (وائل) .

نظر إليها فى دهشة ، وكأن هذا المطلب لم يدر بخلده من قبل ، وعقد حاجبيه وهو يلتقط علبة سجائره ، ويشعل سيجارة ، وينفث دخانها فى بطء ، وكأنه يدير الأمر فى رأسه ، ثم قال فى هدوء :

— لن أدفع لك مؤخر الصَّداق .

قالت فى حزم :

— سأبرئك منه .

عاد ينفث دخان سيجارته فى هدوء ، ثم قال :

— ونفقتك ؟

صاحت فى حنق :

– لست أريد شيئاً يا (وائل) .. طلقنى فحسب .

جلس (وائل) على طرف الفراش ، وأخذ ينفث دخان سيجارته فى هدوء ، لفترة طويلة ، ثم رفع رأسه إليها ، وقال فى هدوء مثير :

– أهذا هو قرارك الأخير ؟

قالت فى حزم :

– نعم .

وفى برود شديد ، وهدوء يفوق الحدّ ، رفع (وائل) عينيه إليها ، وقال فى بساطة :

– أنت طالق ..

وانهارت (هدى) ..

* * *

وجدت نفسى أهتف فى دهشة :

– طلقها ؟!

لمحت دمعة تفرّ من عين محدّثتى ، ولكنها أسرعت تمسحها بأناملها ، وتحاول الابتسام ، وهى تقول :

– نعم .. وبكل بساطة .

انتابنى شعور عجيب بالحنق على (وائل) ، على الرغم من أننى لم أعرفه شخصيا ..

كم تمنيت لحظتها أن أقابله ، وأصرخ فى وجهه :

– لماذا فعلت بها ذلك ؟

يبدو أن رغبتى هذه قد بدت واضحة فى ملامحى ، فقد ابتسمت محدّثتى ، وقالت :

– لقد غادر (وائل) حياة (هدى) ، ومدينته كلها فى الوقت نفسه .

سألتها فى فضول :

– هاجر ؟!

هزّت رأسها نفياً ، وقالت :

– بل التحق بعمل آخر فى القاهرة .

سألتها فى اهتمام :

– و (هدى) ؟!

ظهر حزن عميق فى عينيها ، وقالت :

– لن يمكنك أن تتصوّر ما حدث لها .

سألتها فى لهفة :

ـ ماذا حدث ؟

وأجابتنى ..

* * *

انهارت (هدى) تماماً بعد أن طلقها (وائل) ..

تحطم قلبها تماماً مع فشلها الثانى فى الحياة ..

لم يعد أحد يراها إلا باكية ، ذابلة ، شاحبة ..

وصديقتها الحميمة (فريدة)، كادت تنهار إلى جوارها..

لقد تركت منزلها ، وأقامت تماماً مع (هدى) ، فى محاولة منها لتخفيف أحزانها .

ولكن أحزان (هدى) كانت أكبر من أن يخففها بشر ..

كانت تبكى قدرها ليل نهار ..

ذلك القدر ، الذى منحها السعادة مرَّة ، وانتزعها منها مرَّات ..

وذات ليلة هتفت بها (فريدة) :

ـ رويدك يا (هدى) .. إنك تقتلين نفسك بكل هذا الحزن .

قالت (هدى) من وسط دموعها ، التى لا تنقطع :

ـ لقد خسرت زوجين يا (فريدة) ، ألا تفهمين ذلك ؟

ـ هذه ليست نهاية الحياة .

ـ إنها نهاية آمالى على الأقل .

ـ هراء .. (أحمد) هو كل آمالك .

ـ (أحمد) ؟ !.. لقد تحوَّل إلى كتلة من الحزن .

ـ بسبب ما يراه من أحوالك .

ـ كلاً يا (فريدة) .. هو أيضاً فقد أباه مرَّتين .

ـ لابد لكل هذا الحزن من نهاية .

ـ بلا شك يا (فريدة) ، وأنا أنتظرها .

ـ ما هى ؟

ـ الموت .

اتسعت عينا (فريدة) فى ذهول ، وهى تنظر إلى (هدى) فى شفقة ..

لم تكن تتصوَّر أن حزن (هدى) قد وصل إلى هذا الحد ..

إلى اليأس ..

ظلت صامتة ، تحدّق فى وجه (هدى) ، التى استطردت فى هدوء عجيب :

– هل تعلمين سبب فشل زواجى من (وائل) ؟

غمغمت (فريدة) فى حزن :

– أعرفه .

هزّت (هدى) رأسها نفياً ، وكفكفت دموعها ، وارتسمت فوق شفتيها ابتسامة حانية مفاجئة، وهى تقول :

– كلاً .. إنك لا تعرفينه يا (فريدة) .

ثم أردفت فى حنان زائد :

– إنه (سمير) .

١٣ – الضياع ..

قطع حديثنا فجأة طفل صغير ، فى السادسة من عمره تقريباً .. اقترب من محدّثتى بخطوات هادئة، ووقف إلى جوارها يحدّق فى وجهى بنظرات حزينة ، لا تتفق مع براءة طفولته ..

بدا لى أكبر من عمره بكثير ، وهو يتأملنى فى حذر ..

كان خمرى البشرة ، له ملامح جميلة ، وشعر مجعد ، وعينان خضراوان ، لهما رموش سوداء طويلة ..

ابتسمت له فى ودّ ، وسألت محدّثتى فى هدوء :

– إنه (أحمد) .. أليس كذلك ؟

ابتسمت فى حزن وحنان ، وهى تربّت على شعر الصغير ، قائلة :

– بلى .

اتسعت ابتسامتى ، وأنا أواجه الصغير قائلا :

– كيف حالك يا (أحمد) ؟

أجابنى فى حزن :

– فى خير حال يا عماه .

ثم استدار إلى محدثتى ، وقال :
– أريد العودة إلى المنزل .
أطل من عينيها حنان دافق ، وهى تتحسس شعره ، قائلة :
– هل سئمت اللعب مع رفاقك ؟
أجابها فى ضيق :
– لست أحبّ اللعب معهم .
احتضنته فى حنان ، وقبلت رأسه وهى تقول :
– انتظرنى إذن فى حجرة الأطفال ، سأتم حديثى مع عمك هذا ، ونعود معاً إلى المنزل .
أومأ برأسه فى استسلام ، وحدجنى بنظرة مستريبة ، ثم غادرنا فى هدوء ورصانة ، بدتا عجيبتين حينما اقترنتا بعمره الصغير ..
قلت وأنا أتابعه ببصرى فى إشفاق :
– لقد نما قبل الأوان .
تأملته وهو يبتعد بدورها ، ثم عادت تلتفت إلىّ قائلة :

– لو أنك عانيت نصف ما عاناه ، لشاب شعرك قبل أن تبلغ العشرين .
ساد الصمت بيننا لحظة ، ثم سألتها فى اهتمام :
– تقولين أن (هدى) كانت تعتبر (سمير) هو المسئول ، عن فشل زواجها بـ (وائل) .. فلماذا كانت تظن ذلك ؟
ابتسمت فى حزن ، وقالت :
– سأخبرك ..

* * *

حدّقت (فريدة) فى وجه صديقتها بذهول ، حينما نطقت بعبارتها الأخيرة ، وسألتها فى حيرة :
– وما شأن (سمير) بذلك يا (هدى) .. لقد غادر الحياة كلها منذ ما يزيد على عام ونصف عام .
بدا وكأن حزن (هدى) كله قد تلاشى ، وهى تقول :
– إننى لم أحبّ فى حياتى سوى (سمير) يا (فريدة) .. أحببته بكل روحى ومشاعرى ، وحينما فارق الحياة ، شعرت وكأن نصف روحى قد فاضت ، وعندما قابلت

(وائل) أردت أن أبحث فيه عما يشبه (سمير) ، و تزوّجته؛ لأن حنانه كان مشابهاً لحنان (سمير) .

صمتت لحظة ، وهى تبتسم فى شرود ، ثم تابعت :

– كنت أعامله كما كنت أعامل (سمير)، وحاولت أن أحبه مثله ، ولكننى فشلت.. كانت علاقتى بـ (سمير) علاقة حبّ ، وعلاقتى بـ (وائل) علاقة زواج .

عادت الدموع تسيل من عينيها فى صمت ، وهى تستطرد :

– وكنت أخون (سمير) بزواجى من (وائل) .

صاحت (فريدة) فى استنكار :

– (هدى)!!.. لقد ناقشنا هذا الأمر من قبل و....

هتفت (هدى) تقاطعها :

– كلاً يا (فريدة).. لقد أقنعتنى – يومئذ – لأننى كنت أميل إلى الاقتناع ، أما الآن فأنا واثقة من خيانتى لـ (سمير) ..

ثم رفعت يديها ، وشبكت أصابعهما ، وهى تهتف فى انفعال :

– ليته يغفر لى .. ليته يغفر لى ..

قفزت (فريدة) من مقعدها ، وأمسكت كتفى (هدى) تهزها فى قوة ، وهى تقول :

– كفى يا (هدى) .. الله وحده يغفر لعباده ، وزواجك من (وائل) لم يكن خطيئة، أو تجاوزاً .. لقد كان زواجاً على سنة الله ورسوله ، زواجاً شرعيًّا .

تجاهلتها (هدى) تماماً ، وكأنها لم تسمعها ، وهى تردِّد فى لهفة :

– اغفر لى خيانتى يا (سمير) .. اغفر لى ..

وعادت صورة (سمير) تحتل مكان الصدارة فى المنزل ..

ونسيت (هدى) (وائل) ..

أو هى حاولت التظاهر بذلك ..

لقد استعادت حبّ (سمير) ، لتقاوم به فشلها مع (وائل) ..

كان تتجاهل تماماً فى أحاديثها ، تلك الفترة التى

تزوّجت فيها (وائل) ، وكأن تجاهلها لها سيسقطها فى أذهان الآخرين ..

وأخذت تزداد شحوباً وذبولا ..

حاولت (فريدة) أن تخرجها من حزنها العميق ، ولكنها فشلت ..

حاول والداها كذلك ، وحاول والد (سمير) ، ولكن الفشل كان نصيب الجميع ..

كان الوحيد الذى يمكنه دفعها إلى الابتسام هو ، (أحمد) ..

وحتى ابتسامتها له ، كانت ابتسامة حزينة ، لا أثر فيها للسعادة ..

حتى سقطت فريسة المرض ..

لم يحتمل جسدها الرقيق كل هذا الحزن ، فسقطت ..

وكانت ترفض الدواء ..

ترفضه فى شدة ..

حاولت (فريدة) إقناعها يوماً بتناول الدواء ، ولكنها رفضته قائلة :

– دعينى يا (فريدة) .. الدواء قد يمنعنى اللحاق بـ (سمير) .

هتفت (فريدة) فى حزن :

– دعى عنك هذه الأفكار يا (هدى) .. لابد أن تعيشى ، من أجل (أحمد) .

ابتسمت (هدى) ابتسامة حزينة ، وقالت :

– لن يسعد (أحمد) بأم محطمة مثلى .

هتفت (فريدة) :

– لهذا لابد أن تقاومى يا (هدى) .. من أجله .

ولكن (فريدة) لم تتلق جواباً ، فقد سقطت (هدى) فى غيبوبة عميقة ..

أسرعت (فريدة) كالمجنونة إلى أقرب طبيب، وعادت به إلى منزل (هدى) ، وسرعان ما لحق بها والدا (هدى) ووالد (سمير) ، وقد تملكهم جميعاً ذعر هائل ..

كانت والدة (هدى) تبكى فى حرارة ، ووالدها يذرع ردهة المنزل كالمجنون ، على حين تصلبت أطراف والد (سمير) فوق مقعد قريب ، وأخذ يتلو آيات من القرآن الكريم فى أمل ولهفة ..

وأخيراً .. غادر الطبيب غرفة (هدى) و ....

تعلقت العيون بشفتيه فى لهفة وقلق ، وتعلق به (أحمد) الصغير ، وهو يقول بلهجته الطفولية الحزينة :

— كيف حال ماما ؟

ربتّ الطبيب على رأسه فى حنان ، وقال :

— بخير أيها الصغير .

أسرع إليه والد (هدى)، وتشبث بذراعه وهو يسأله:

— ماذا بها ؟

تردّد الطبيب لحظة ، ثم قال :

— لا يمكننى الجزم يا سيدى .. إنها تحتاج إلى عدد من الفحوص و ....

سأله الوالد فى قلق بالغ :

— هل تشك فى شىء محدد ؟

تردد الطبيب طويلا ، وهو يقلب بصره بين العيون القلقة ، التى تتطلع إليه فى لهفة ، ثم غلبته أمانته الطبية ، فهمس فى إشفاق :

— للأسف ياسيدى.. إننى أشك فى وجود ورم خبيث .

* * *

١٤ — أيها القدر ..

حزن وألم عميقان ظللا العائلة كلها مع انتشار الخبر ، ولكنهم تشبثوا جميعاً بأمل واحد ..

أن تأتى نتائج الفحوص سلبية ..

ولم تكد (هدى) تستعيد قدرتها على الحركة ، حتى صحبتها (فريدة) لعمل الفحوص اللازمة ..

وانتظرت العائلة كلها نتائج الفحوص ، وألسنتهم لا تكف عن الدعاء ..

ولكن الفحوص محت من قلوبهم كل أمل ..

كانت (هدى) تعانى حقًّا ورمًا خبيثًا ..

نفس الورم الذى أصيب به (سمير) منذ عامين ..

انهار الجميع عدا (هدى) ..

لقد استقبلت الخبر فى هدوء عجيب ..

بل ابتسمت وهى تردد خلف الطبيب :

— نفس الذى أصيب به (سمير) ؟!

لم يبد عليها أى أثر للحزن ، وإنما ظلت ابتسامتها

تزين شفتيها طوال الوقت ، ونظرت إلى دموع (فريدة)
فى دهشة ، وسألتها :

— ما الذى يبكيك يا (فريدة) ؟

نظرت إليها (فريدة) فى حنان وإشفاق ، وغمغمت :

— لا شىء يا (هدى) ، لا شىء .

بدا وكأن هذا الجواب يكفى (هدى) ، فقد ابتسمت
وهى تقول :

— هل رأيت كم كنا نحبّ بعضنا ، أنا و (سمير)
يا (فريدة) ؟

ثم أردفت فى فرح :

— كنا نتشابه فى كل شىء .. حتى فى نوع المرض .

والتفتت إلى (فريدة) ، مستطردة فى سعادة :

— إنه يدعونى للحاق به يا (فريدة) .. إنه يدعونى إلى
شهر عسل جديد فى جنة الخلود .. سأذهب إليه يا (فريدة) .

صاحت (فريدة) فى ألم :

— ليس الآن يا (هدى) .. لقد شفى (سمير) من
مرضه ، وأنت أيضاً ستشفين بإذن الله .

التفتت إليها (هدى) فى هدوء ، وقالت :

— ولكننى لا أرغب فى الشفاء يا (فريدة) .

ردَّدت (هدى) هذه العبارة للجميع ، فهتف والدها
فى ألم :

— حرام ما تقولين يا بنيتى ، لقد خلق الله (سبحانه
وتعالى) الداء والدواء .

غمغمت فى هدوء :

— لم يعد لى أى هدف فى الحياة يا أبى .

ضمتها والدتها إلى صدرها ، وهتفت فى صوت باك :

— ولكنك هدفنا الوحيد فى الحياة يا بنيتى ، وسنفعل
المستحيل من أجل شفائك .

قالت (هدى) فى حزم :

— إننى أرفض يا والدى .. أرفض الشفاء .

* * *

أشعلت أنا ومحدِّثتى سيجارتين ، أوقفتا حديثنا مؤقتاً ،
ثم سألتها :

— ولماذا كنت ترفضين الشفاء ؟

نظرت إلىَّ فى غضب ، وقالت :
– قلت لك إنها ليست قصتى .
ابتسمت فى هـدوء ، وأنا أتذكر التصاق (أحمـد)
بها ، وقلت :
– لماذا كانت (هدى) ترفض الشفاء إذن ؟
هزت كتفيها ، وقالت فى حزن :
– كانت تظن أنها بذلك تكفر عن خيانتها لـ (سمير) .
تأملت ملامحها لحظة ، ثم قلت :
– ولكنها تراجعت عن ذلك بالطبع .
ابتسمت فى هدوء ، وقالت :
– لم يحدث ذلك ببساطة .
سألتها فى اهتمام :
– كيف حدث ؟..
وأجابت ..

* * *

على الرغم من استسلام (هدى) لمرضها ، إلا أنهـا
لم تمانع فى الذهاب مع (فريدة) إلى الطبيب ، ليفحصها

مرة أخرى ، واستسلمت لفحصه فى هـدوء ، ثم جلست
أمامه ، وهو يقول :
– لقـد تقدَّم الطب كثيراً خلال العامين الماضيين ،
ولم يعد علاج مثل هـذه الأورام الخبيثة بالأمر العسير ،
ولـكن ....
سألته (فريدة) فى لهفة :
– ولكن ماذا ؟
مط شفتيه ، وقال :
– لقـد تضاعفت نسبة الشفاء من هـذا النوع من
الأورام كثيراً ، وأصبح علاجها يتم هنا فى مصر ، وليس
خارجها ، كما كان يحدث سابقًا .. ولكن الشفاء يحتاج
إلى شىء آخر بخلاف مهارة الأطباء ، وتقدم وسائل العلاج .
ثم أردف فى إشفاق :
– يحتاج إلى رغبة المريض فى الشفاء .
تطلعت (فريدة) فى إشفاق إلى (هـدى) ، التى
ظلت هادئة باسمة ، وكأنما الحديث لا يعنيها ، وقالت :
– أهذا ضرورى ؟

أجابها الطبيب فى هدوء :

ـ إنه أكثر الأشياء ضرورية .

وفى طريق العودة ، قالت (فريدة) لـ (هدى) :

ـ هل سمعت ما قاله الطبيب ؟

أجابتها (هدى) فى هدوء :

ـ سمعته .

سألتها فى صرامة :

ـ إنه يعنى أنك وحدك صاحبة القرار فى شفائك .

ابتسمت (هدى) ، وهى تقول :

ـ لقد اتخذت قرارى بالفعل .

وجدت (فريدة) نفسها تهتف فى حنق :

ـ إنه قرار أحمق .

تطلعت إليها (هدى) فى دهشة ، وقالت :

ـ ولكنه قرارى أنا يا (فريدة) ، وهى حياتى أنا التى أتنازل عنها .

صاحت (فريدة) :

ـ ليس من حق الإنسان التنازل عن حياته ، فهو لم

يحصل عليها بإرادته ، ولن يتنازل عنها بإرادته .

ـ من قال هذا ؟.. ألم تسمعى عن هؤلاء الجنود ، الذين ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر ، من أجل وطنهم ، أو رفاقهم .

ـ هذا الأمر يختلف ، فهم يهبون حياتهم من أجل غاية عظمى .

ـ أنا أيضاً أهب حياتى من أجل غاية عظمى .

ـ أية غاية ؟

ـ التكفير عن خيانتى .

ـ هراء .. إن ما تفعلينه يعد انتحاراً ، والانتحار جريمة يعاقب عليها الشرع والقانون .

ـ أريد أن ألتقى بـ (سمير) .

ـ لن يحدث هذا أبداً بطريقتك .

ـ بل سيحدث .

ـ كلاً .. إن المنتحر يذهب إلى الجحيم ، وهناك لا يلتقى الأحبة أبداً .

ـ سيغفر الله لى ، فهو (سبحانه) غفور رحيم .

ـ إن رحمة الله (سبحانه وتعالى) لمن يطيعه فقط ، لا لمن يغضبه .

صمتت (هدى) لحظة ، وكأنها تدرس الحوار مرة أخرى ، ثم قالت :

ـ فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير يا (فريدة) .. اتركى لى هذا القرار ، فلن يتخذه سواى .

سألتها (فريدة) فى تردد :

ـ وماذا ستفعلين ؟

أجابتها فى هدوء :

ـ سأفعل الشىء الصحيح .. وهذا شأنى وحدى .. وشأن القدر .

* * *



تلقت (فريدة) فى صباح اليوم التالى مكالمة هاتفية ، جعلتها تهرع فى قلق إلى منزل (هدى) ..

كانت (هدى) نفسها هى صاحبة المكالمة ، ولم تكد تسمع صوت (فريدة) ، عبر أسلاك الهاتف ، حتى قالت فى لهفة :

ـ (فريدة) .. لقد رأيته يا (فريدة) .

هتفت بها (فريدة) فى قلق :

ـ رأيت من ؟

صاحت (هدى) فى سعادة :

ـ رأيت (سمير) .

صرخت (فريدة) فى ذهول :

ـ (سمير) ؟!

هتفت (هدى) فى فرح :

ـ نعم يا (فريدة) .. (سمير) ، إننى أنتظرك لأقص عليك ما حدث .

هذه المكالمة هى التى جعلت (فريدة) تهرع إلى منزل (هدى) فى قلق ..

لقد تصورت أن (هدى) قد أصابها الجنون ..

تصورت أن الضغوط النفسية التى عرضت (هدى) نفسها إليها ، قد ذهبت بعقلها تماماً ..

ولكن لقاءها بـ (هدى) أزال هذه الفكرة عن رأسها تماماً ..

لم تكد تصل إلى شقة (هدى) ، حتى سألتها فى لهفة :

ـ أين رأيت (سمير) يا (هدى) ؟

ابتسمت (هدى) فى سعادة ، وأجابتها :

ـ فى نومى يا (فريدة) .

تنهدت (فريدة) فى ارتياح ، وقالت :

ـ هو حلم إذن .

هتفت (هدى) :

ـ بل رؤيا يا (فريدة) .

عقدت (فريدة) حاجبيها فى دهشة ، وهى تغمغم :

ـ رؤيا ؟!

قالت (هدى) فى سعادة :

ـ نعم يا (فريدة) .. رؤيا .

ثم مالت نحوها ، وهى تستطرد فى حماس :

ـ هل تذكرين تلك الرؤيا ، التى أخبرتك عنها ، والتى رأيتها إبَّان مصرع (سمير) .

عقدت (فريدة) حاجبيها ، فى محاولة للتذكر ، وتمتمت فى صوت خافت :

ـ هل تقصدين رؤيتك له وسط الغيوم ؟

هتفت (هدى) :

ـ إنها الرؤية نفسها ، التى رأيتها أمس .

سألتها (فريدة) فى دهشة :

ـ المشهد نفسه .

هزَّت (هدى) رأسها فى حماس ، وقالت :

ـ كلاً .. لقد رأيته على نحو مختلف .

ثم قادت (فريدة) إلى الأريكة ، وأجلستها إلى جوارها ، وقالت فى اهتمام :

ـ لقد رأيت نفسى أقف وسط الغيوم الكثيفة ،

وأتطلع حولى فى خوف ، ثم لم ألبث أن رأيت (سمير)
يتقدم منى ، ويبرز من وسط الغيوم .

شردت نظراتها فى حنان ، وهى تقول :

ـ لقد كان يبتسم نفس ابتسامته الحنون ، وهو يقترب منى ، ويمد كفه إلى قائلاً : « تعالى يا (هدى) ».. حاولت أن أذهب إليه ، ولكن قدمَىَّ بدتا ثقيلتين ، فقلت له : « اجذبنى إليك » .. ابتسم وقال : « كلاَّ يا (هدى) .. هذه مهمتك وحدك » .. سألته : « هل أحضر (أحمد) ؟ » .. هزَّ رأسه فى هدوء ، وقال : « لم يحن وقته بعد يا (هدى) » .

قاطعتها (فريدة) فى قلق :

ـ وماذا يعنى هذا ؟

ابتسمت (هدى) ابتسامة عريضة ، وقالت :

ـ يعنى أننى سألحق به يا (فريدة) .. سألحق به إلى عالم الخلود .

* * *

قاطعنا (أحمد) الصغير ، الذى عاد دون أن ننتبه إليه ، وقال لمحدِّثتى ، وهو يحدجنى بنظرته الحزينة المرتابة :

ـ أريد العودة إلى المنزل يا ماما .

ربَّتت على رأسه فى حنان ، وقالت :

ـ سننصرف بعد قليل يا (أحمد) .. أعدك بذلك .

نظر إلى (أحمد) فى ضيق ، وكأنه يتهمنى بانتزاعها منه ، ثم عاد أدراجه إلى حجرة الأطفال فى هدوء ، وتبعته بنظراتى حتى اختفى داخلها ، ثم سألتها فى اهتمام :

ماذا حدث بعد ذلك ؟

تطلعت إلىَّ فى حزن ، وقالت :

ـ أخبرنى أولاً ، هل تظن ما رأته (هدى) رؤيا حقًّا ، أم مجرَّد حلم عادىّ .

قلت فى ثقة :

ـ حلم عادى ولا شك .

عقدت حاجبيها ، وهى تسألنى فى اهتمام :

ـ لماذا ؟

قلت مندفعاً :

ـ لأن الرؤيا تتحقق ، بخلاف الحلم ، الذى يعبر عن رغبات عقلنا الباطن و ....

أردت أن أقول إن مناداة الصغير لها بكلمة (ماما) ، تؤكد أن الحلم لم يتحقق ، ولكننى تذكرت رغبة محدِّثتى فى إخفاء شخصيتها ، فبترت عبارتى ، وقلت :

— هذا ما أظنه أنا .

أومأت برأسها ، وهى تقول :

— تحليلاتكم دائماً منطقية أيها المؤلفون .

ابتسمت فى ثقة ، وقلت :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

غمغمت :

— كادت القصة تصل إلى نهايتها .

وأشعلت سيجارتها العشرين ، وعادت تقص ما بقى من القصة ..

* * *

شعرت (فريدة) بغضب هائل ، وهى تستمع إلى عبارة (هدى) المستسلمة للموت ، فقالت فى حدَّة :

— لقد اختلق عقلك الباطن هذا الحلم يا (هدى) ، لتفرِّى من مسئولياتك .

نظرت إليها (هدى) فى دهشة ، وغمغمت :

— ماذا تقولين يا (فريدة) ؟

صاحت (فريدة) فى حنق :

— أنت تشعرين بثقل المسئولية الملقاة على عاتقك ، وتحاولين الفرار منها .

سألتها (هدى) فى دهشة :

— أية مسئولية يا (فريدة) ؟

هتفت (فريدة) :

— مسئولية (أحمد) .

ظهر التردُّد على وجه (هدى) لحظة ، فتابعت (فريدة) فى حنق :

— هل تعلمين ما سيفعله به استسلامك للموت ؟.. إنه سيجعل منه طفلاً يتيماً ، بائساً .. ولن يجد فى الدنيا كلها ما يعوِّضه عن حنان أمه ..

تسلل الحنان إلى ملامح (هدى) ، وواصلت (فريدة) حديثها الغاضب :

— أنت أم يا (هدى) ، وحبك لـ (سمير) لا يمحو

مسئوليتك الخاصة تجاه ابنك .. ولا أعتقد أن (سمير) يقبل استسلامك للموت ، وتخليك عن ابنه ، إنه لن يغفر له ذلك .

غمغمت (هدى) ، وقد تنبهت إلى هذه الحقيقة لأول مرة :

— لن يغفر لى تركى ابنه يتيماً !!

وفجأة شق المكان صوت (أحمد) يصرخ فى فزع :

— ماما .

التفتت إليه (هدى) ، و (فريدة) فى جزع ، فاندفع نحو أمه ، وتعلق بها وهو يبكى ويقول فى ألم :

— لا تتركينى يا أماه .. لا تتخلى عنى .

احتضنته (هدى) فى لهفة الأم وحنانها ، وهتفت وهى تضمه إلى صدرها فى قوة :

— لن أتركك أبداً يا (أحمد) .. سأحيا من أجلك .

ثم التفتت إلى (فريدة) ، وقالت فى حزم :

— سأحيا يا (فريدة) .

* * *

١٦ ـ العلاج ..

تحوّل مسار (هدى) تماماً بعد هذا اليوم ..

أقبلت على العلاج فى اهتمام خالص ، وحماس شديد ..

أصبحت ترغب فى الشفاء ، وتتمناه ..

أطباء المستشفى كلهم كانوا يتمنون لها الشفاء ..

وذات يوم زارتها (فريدة) فى المستشفى ، ورأت السعادة ترتسم واضحة على ملامحها ، فسألتها فى فرح :

— هل تشعرين بتحسُّن يا (هدى) ؟

هتفت (هدى) فى فرح :

— كثيراً يا (فريدة) .

ثم تلفتت حولها ، وكأنها تخشى أن يكون هناك ما يسمع حديثهما ، وهمست فى فرح :

— الجميع هنا يولوننى اهتماماً بالغاً ، وبالذات (عادل) .

سألتها (فريدة) فى قلق :

— من (عادل) هذا ؟

تورَّد وجه (هدى) بحمرة الخجل ، وقالت وهى ترخى جفنيها فى حياء :

– ذلك الطبيب الشاب ، الذى قابلته هنا بالأمس .. هل تذكرينه ؟

تذكرت (فريدة) الطبيب ، فقالت فى دهشة :

– يا إلهى !! .. (عادل مرزوق) .

غمغمت (هدى) فى سعادة :

– إنه هو .

تردَّدت (فريدة) لحظة ، ثم سألتها :

– هل طلب الزواج منك ؟

ازداد تخضب وجه (هدى) بحمرة الخجل ، وهى تقول :

– ليس بعد ، ولكن معاملته لى تؤكد ذلك .

لم تحاول (فريدة) مناقشة الأمر معها ..

اكتفت بأن هذا الحافز الجديد ، قد بعث فى نفس (هدى) مزيداً من الرغبة فى الحياة ..

مزيداً من الإقبال على العلاج ..

سألتها فى حنان :

– هل تحبينه يا (هدى) ؟

قالت (هدى) فى فرح :

– نعم يا (فريدة) .

شعرت (فريدة) بالسعادة ؛ لأن (هدى) نجحت فى التغلب على أحزانها ، ولكن إحساسها الدائم بالأمومة تجاه (هدى) ، جعلها تسأل فى المستشفى عن (عادل) هذا ، كما تفعل الأم وهى تسأل عن زوج ابنتها المرتقب..

وكانت المفاجأة ..

إن (عادل) متزوِّج ، وله طفلان ..

وبعد مواجهة غاضبة مع (عادل) ، كشفت (فريدة) أن ما يوليه لـ (هدى) فى حنان ، لم يتجاوز شعور الطبيب نحو مريضة ، تعانى مرضاً خطيراً ..

ولكن (هدى) هى التى أساءت فهم مشاعره ، وتفسيرها ..

أثار هذا الكشف رعب (فريدة) ، ولكنها كتمت مشاعرها داخلها ، وقرَّرت إخفاء الأمر ، حتى يتم

شفاء (هدى) ، وبعدها ستصبح أقدر على تحمل الصدمة الجديدة ..

صدمة الفشل الثالث ..

* * *

تنهدت بصوت مسموع ، وقد توصلت أخيراً إلى الحزن المطل من عينيها ..

وشعرت نحوها بالشفقة ..

إنها امرأة تعانى دائماً الفشل ، فى كل مرة ينبض فيها قلبها بالحبّ ..

ولا ريب أن فشلها المتكرِّر ، هو سبب محاولتها التظاهر بمظهر المرأة المستهترة ..

ولا ريب أنه ينعكس أيضاً على مشاعر ابنها ، ويحفر الحزن فى عينيه وملامحه ..

لاحظت هى الارتياح الذى ارتسم على وجهى ، فسألتنى فى هدوء :

ـ ماذا حدث ؟

ابتسمت وأنا أقول فى ثقة :

ـ لا شىء .. مجرد شعور بالنجاح .

عقدت حاجبيها الجميلين ، وهى تسألنى فى دهشة :

ـ أى نجاح ؟

أجبتها فى هدوء :

ـ سأخبرك حينما تنتهى قصتك .

أومأت برأسها موافقة ، وعادت تواصل القصة ..

* * *

على الرغم من محاولة (فريدة) إخفاء الأمر عن (هدى) ، إلا أنها عرفته بمحض الصدفة ..

عرفته من حديث عابر مع إحدى ممرضات المستشفى.

عرفت أن (عادل) متزوِّج ..

وكان وقع الصدمة عليها رهيباً ..

انهارت مشاعرها ، وفقدت مرة أخرى الرغبة فى الشفاء ..

ولولا حبها لـ (أحمد) ،لاستسلمت للموت فى خضوع ..

وباتت مشاعرها ممزَّقة ..

جزء منها يبحث عن الشفاء من أجل ابنها ، وجزء آخر يسعى للموت هرباً من فشلها المتكرِّر ..

كان صراعاً رهيباً ، بين عقلها ومشاعرها ..

وانتصر أحدهما ..

انتصر ذات ليلة غاب فيها القمر ، وحجبت فيها الغيوم ضوء النجوم ..

كانت ليلة شديدة الظلام ..

ابتسمت (هدى) فى وجه (فريدة) ، ابتسامة ذابلة شاحبة ، وغمغمت فى ضراعة :

ـ (أحمد) يا (فريدة) ..

وكان هذا آخر ما نطقت به ..

رحلت (هدى) فى هدوء ..

لحقت بحبيبها (سمير) فى عالم الخلود ..

* * *

١٧ ـ الوداع ..

حدَّقت فى وجه محدِّثتى بذهول ..

لقد حطمت فى الدقيقة الأخيرة من قصتها ، كل استنتاجاتى السابقة ..

ولكننى شعرت أنها تخدعنى ..

تأملت ملامحها فى ذهول ، وهى تنهض حاملة حقيبتها ..

لم أستطع أن أصدِّق أنها ليست (هدى) ..

إنها تحمل نفس العينين ، والملامح ..

إنها (هدى) ..

غمغمت وأنا أتابعها ببصرى :

ـ (هدى) !

ابتسمت ابتسامة تفيض حزناً ، وقالت :

ـ لقد رحلت (هدى) .

رأيت (أحمد) يسرع إليها ، وقد لمح من وقفتها استعدادها للانصراف ..

رأيته يترك لها كفه الصغيرة فى استسلام ، على نحو يستحيل حدوثه ، إلا بين طفل وأمه ..

أردت أن أسأله عمن تكون هى ، ولكن نظـرته الحزينة المرتابة أوقفتنى ..

سألتنى قبل أن تنصرف :

– هل منحتك قصة جيدة ؟..

أجبتها فى توتر :

– بلا شك .. ولكن ....

قاطعته وكأنها فهمت مقصدى ، وقالت :

– ضع لها النهاية التى تحلو لك ..

قبل أن أسألها سؤالاً آخر ، كانت قد انصرفت ، وتركت لى حيرتى .. .

أ (هدى) هى ؟.. أم (فريدة) ؟..

أكانت تعنى حقـًا رحيـل (هـدى) ؟ أم أنه مجرَّد رمز لحالة الضياع التى عاشتها بعد فشلها الثالث ؟

رأيتها تعبر بوابة النادى ، وهى تحتضن كفَّ الصغير فى حنان ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها زوجتى ، وهى تدفع أمامها عربة طفلى الصغير ..

لوَّحت لى زوجتى بكفها فى مرح ، فبادلتها التحية فى شرود ..

كنت أعلم أن عقلى سيقضى وقتاً طويلاً قبل أن يهدأ.. سيظل حائراً يتساءل : أ (هدى) هى أم (فريدة) ؟. وحتى هذه اللحظة ، لم يحصل عقلى على جواب شاف.. ولعلى أجد الجواب عندك أنت أيها القارئ ..

هل عرفتها ؟..

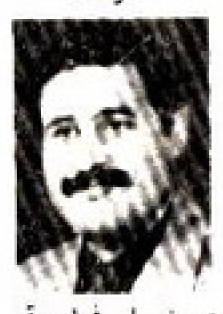
* * *

[تمت بحمد الله]



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

لعبة القدر

(هدى) فتاة جميلة، ذات مرح طفولي، وقلب حنون. ولكن القدر يعبث بحياتها كلها.. فتارة تتذوق السعادة، وأخرى تجتر الحزن.. وتسير حياتها كلها تحت رحمة القدر، ولكن كيف تكون النهاية؟ أهي السعادة، أم الشقاء؟.. إنها (لعبة القدر).



الثمن في مصر ١٠٠ قرشاً

ومايعادل دولارًا أمريكيًا في سائر الدول العربية والعالم